الفصل السادس

النقائض
الطابع الفنى والدلالة التاريخية

النقائض فى مفهومها العام فن تركيبى، فهى - طبقا لنماذجها من الشعر الأموى - لاتقتصر على الفخر وحده، ولا على الهجاء فحسب، بل هى مزيج منهما معًا، وقد تبدأ مع ذلك بمقدمات غزلية على نحو ما تبدأ جمهرة القصائد العربية فى نهجها الموروث، بيد أن أبرز هذه الأنسجة وأشدها وضوحًا فى بناء النقائض هو الهجاء، شريطة أن لا يفهم الهجاء هنا بمعناه اللغوى البسيط، أى من حيث هو ذم مباشر يجيش به وجدان الفرد فيقذف به اللسان حمما تلقائية ينقصها الاحتشاد والإعداد، بل هو الهجاء وقد أضحى محصلة ثقافية وتاريخية لوجدان الجماعة، يقدم عليه الشاعر مدركًا أنه لا يمثل ذاته بقدر ما يمثل انتماءه القبلى والسياسى، ويتفنن فى اصطناع وسائله وأدواته بإحساس من يقتحم معركة فنية ليس فيها عن الفوز بديل.

وأصل الهجاء «تعبير الشاعر عما يجول بنفسه نحو شخص من الأشخاص أو جماعة من الجماعات وقفوا منه موقفًا لا يحبه ولا يرضاه، فيجد نفسه ساخطاً غاضبًا، فيضطر إلى التخفيف عما بنفسه من ألم مبرح يشعر به نحو من آذاه، فيحاول إيذاءه بالكلام كأنه يطهر نفسه مما به من غيظ»[1]. وهو بهذا المعنى فن قديم من فنون القول الشعرى، عرفه الجاهليون كما عرفه غيرهم، وفى حميا الصراع القبلى لم يكن الشاعر الجاهلى يتورع عن التنديد بنقائص خصومه وتعداد عيوبهم، وكثيرا ما كان هذا التنديد يدور حول الغض من شأن القبيلة التى ينتمى إليها خصوم الشاعر والتهوين من قيمة آبائهم وأجدادهم ورميهم بالبخل والجبن والسفه وغير ذلك من المثالب النفسية، وأحيانًا كان الهجاء يتجاوز هذا الإطار النفسى، حيث يلجأ الشاعر إلى العيوب الحسية فى خصمه، فيرميه بالقصر أو الدمامة أو يجسمه فى صورة حيوان مقيت أو حشرة ضعيفة[2]، أو يطعنه فى رجولته أو عرضه، ولكن هذا الجانب الأخير كان - على أية حال - قليلا إذا قورن فى كثرته وذيوعه بالجانب الأول.

---

(١) جرير - حياته وشعره - ص ٢١٢.

(٢) السابق - ص ٣١٤.

ولقد أشرنا من قبل إلى أن الإسلام قد وقف موقفًا حاسما من هجاء المسلم لأخيه، لما فى ذلك من تفتيت لوحدة الجماعة الإسلامية، وقد حبس عمر بن الخطاب الحطيئة لأنه اجترأ على هجاء الزبرقان بن بدر، وصنع عثمان نحوا من صنيع عمر، إذ حبس ضابىء بن الحارث البرجمى لأنه أقدم على هجاء قوم من الأنصار، غير أن هذا الوضع لا يدوم طويلا، فمع نهاية عصر الخلفاء الراشدين يحتدم الهجاء مرة أخرى بتأثير العصبيات القبلية التى اشتعلت نيرانها، فهذه عصبية بين قيس وتغلب نشأت نتيجة الجوار والمزاحمة، ثم اشتدت بانضمام قيس إلى ابن الزبير وانضمام تغلب إلى بنى أمية، وتلك عصبية أخرى بين قيس وتميم احتدمت باختلاف مواقفهما السياسية، ثم ساعدت على إذكائها وقائع وثارات تواترت بين القبيلتين، وهذه عصبية ثالثة بين العدنانيين والقحطانيين زاد اشتعالها مع تلك المواجهة المباشرة بين قيس - وهى عدنانية - وكلب وهى يمنية، فقد انضوت قيس تحت لواء عبد الله بن الزبير حين خرج على بنى أمية، على حين انضمت كلب إلى جانب الأمويين، وحدثت بين الفريقين موقعة «مرج راهط» المشهورة التى كانت بداية النهاية بالنسبة لابن الزبير، وقد سقط من قيس فى هذه الموقعة قتلى كثيرون، وراح الشعر والشعراء يصورون هذا الصراع الدامى وآثاره تصويرا يختلط فيه الحزن بالحسرة، ويمتزج فيه الهجاء بالإصرار على الإنتقام. إليك - على سبيل المثال - ما يقوله واحد من أعلام قيس هو زفر بن الحارث يبكى صرعى قبيلته:

لعَمرى لقد أبْقت وقيعةُ راهط ... لمروان صَدعا بيننا متنائيا
فقد ينْبُت المرعَى على دِمَن الثرى ... وتَبقى حزازاتُ النفوس كما هيا
أرينى سلاحى لا أبالك، إننى ... أرى الحرب لا تزداد إلا تَماديا
أتذهب كلب لم تَنَلها رماحنا ... وتترك قتلى راهط هى ما هيا
فلم يُر منّى نَبْوة قبل هذه ... فرارى وترْكى صاحبى ورائيا
عشية أغدو فى الفريقين لا أرى ... من القوم إلّا مَن عَلَىّ ولا ليا
أيذهب يوم واحد إنْ أسأتُه ... بصالح أيامى وحسن بلائيا؟![1]

وقد كانت هذه العصبيات وأمثالها بمثابة الريح المواتية، حركت نيران الهجاء وزادتها ضراوة واشتعالا، وأعانتها بعض العوامل الشخصية الأخرى مثل تلك الخصومات التى كانت تنشب بين الشعراء نتيجة المنافسة والرغبة فى الاستئثار بالفضل الفنى، وقد كانت هذه الخصومات بابا واسعا ربما دخل منه شاعر أوأكثر انتصارا لشاعر ما ضد شاعر آخر، كما حدث فى تلك الملاحاة الشعرية الشهيرة بين جرير والفرزدق، إذ كان كثير من الشعراء يقفون مع الفرزدق ضد

(١) مروج الذهب - جـ ٢ - ص ١٠٧.

خصمه، ومن ثم ألهبوا ضرام هذه الخصومة وساعدوا على اتساعها واستمرارها.

فى ظل هذه العصبيات المختلفة والخصومات الشخصية الناشبة انتقل فن الهجاء نقلة كبرى، انتقل من تلك الصورة البسيطة التى كان عليها فى العصر الجاهلى فأصبح فنا مكتمل النهج والأداة، لاتعوزه دلائل الصنعة ولا تخفى فيه مظاهر التخصص، يستجمع له الشاعر ويحتشد، ويستعين عليه بكل مهاراته الفنية وبكل معارفه عن أنساب القبائل العربية وأخبارها وأيامها، حتى ليصح اعتبار بعض قصائد الهجاء فى العصر الأموى بمثابة الوثائق التاريخية لحروب هذه القبائل وخصوماتها وصراعاتها القديمة والحديثة.

وقد كان التهاجى بين شعراء القبائل فى الجاهلية يتم فى كثير من الأحيان بناء على إحساس حقيقى من الشعراء بواجب الذود عن القبيلة ضد أعدائها، فكان الصراع اللسانى يواكب الصراع القتالى ويرفده حتى إذا هدأت حدة الخصومة وألقى الفرسان أسلحتهم هدأت كذلك حدة الصراع اللسانى، فلم يكن الهجاء آنذاك مقصودا لذاته ولم يحمل طابع الدوام والاستمرار، بل كان مرهونا بفترات الحروب واشتعال الصراعات الدموية، ولأنه كان إفراز الانفعالات المحمومة حين يتحرك السلاح أو يوشك أن يتحرك، فإنه كان يصطبغ بصبغة الفطرة، وكان عفويًا فى شفوفه عن مشاعر الغضب التى تجتاح نفس الشاعر، تلقائيًا فى معانيه وأخيلته وأفكاره.

أما فى ذلك العصر الأموى فقد أصبح التهاجى بين الشعراء عملية يومية مستمرة، يقبل عليها الشعراء وكأنهم مقبلون على نوع من المران اللسانى والمبارزة الكلامية، فلا أثر ثمة لغبار المعارك ولا صليل السلاح، بل كل ما هنالك مثير قبلى يضرب بجذوره فى تربة العصبية السائدة، تدعمه رغبة من الشاعر فى إفحام خصمه والانتصار القولى عليه، دونما إحساس حقيقى بالعدوان أو حرص عليه[1]، وكأنما الأمر لا يعدو فى النهاية أن يكون ضربا من المباريات الشعرية يمكن أن تستمر كما استمرت بين جرير والفرزدق نحوا من أربعين عامًا.

هكذا تطور فن الهجاء فى العصر الأموى، بحيث أصبح فى وفرة من نماذجه نقائض يتبادلها الشعراء فيما بينهم، ويحرص كل منهم فيما ينشده من قصائد على أن ينقض معانى الفخر والهجاء التى أتى بها الآخر، كما يحرص على أن تكون قصيدته من نفس الوزن وعلى نفس القافية التى وردت بها قصيدة صاحبه، ومن هنا تسمية مثل هذه القصيدة بالنقيضة، فالنقيضة أن يقول شاعر شعرا فينقضه عليه شاعر آخر حتى يجىء بغير ما قال، وهى تطلق على القصيدة البادئة كما

---

(١) لمزيد من التفصيل فى هذا المعنى يراجع:
د . شوقى ضيف: التطور والتجديد فى الشعر الأموى - ص ١٣١ وما بعدها.

تطلق على القصيدة المجيبة، ولهذا المعنى الفنى صلة بأصل مادة «النقض» من الناحية اللغوية، فالنقض فى البناء والحبل والعهد ضد الإبرام، فكأن الشاعر إذ يرد على صاحبه قصيدته يتوخى نقض المعانى والصور والإيقاعات التى بنى منها قصيدته وهدمها معنى معنى وصورة صورة حتى لايسلم من هذا الذى بناه شىء.

والنقائض فى صورتها البسيطة ليست جديدة على الشعر العربى، لأننا نرى فى شعر العصر الجاهلى نماذج مصغرة لها، تتمثل فيما كان ينشده بعض الشعراء ردًا على خصومهم، وخاصة حين كان القتال يستعر بين القبائل، فيكون الصراع الكلامى مواكبًا للصراع القتالى ولسانا له.وطورًا كان هذا الصراع الكلامى ينفلت من قيود الالتزام بأن تكون القصيدة الناقضة من نفس وزن وروى القصيدة المنقوضة، قانعًا بنقض المعانى والصور الشعرية، كما فى معلقتى عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة، وطورًا آخر كان الشاعر المجيب يضيف إلى نقض هذه المعانى والصور نقض الإيقاعات التى صاغ عليها الشاعر البادىء قصيدته. إليك ما يقوله قيس بن الخطيم الأوسى فى تلك المعارك الحامية التى دارت بين الأوس والخزرج قبل أن يؤلف الإسلام بين قلوبهم :

دعوتُ بنى عوف لحَقْن دمائهم ... فلما أبَوْا سامحت فى حرب حاطب
وكنتُ امرأً لا أبعث الحرب ظالما ... فلما أبوا أشعلتها كل جانب

فيرد عليه عبد الله بن رواحة من نفس الوزن والقافية:

إذا عُيِّرتْ أحساب قوم وجدتَنا ... ذوى نائل فيها كرام المضارب
نُحامى على أحسابنا بِتلادنا ... لِمُفْتَقِرٍ أو سائل الحق راغب

ويقول حسان بن ثابت فى يوم الربيع الذى كان بين الأوس والخزرج :

ويشرب تعلم أنا بها ... إذا التبس الأمر ميزانُها
ويشرب تعلم أنا بها ... إذا خافت الأوسَ جيرانُها
ويشرب تعلم أن النَّبِيـ ... ـتَ عند الهزاهز ذُلَّانُها

فيجيبه قيس بن الخطيم :

ونحن الفوارس يوم الرُّبَيع ... قد عُلموا كيف فرسانُها
ويشرب تعلم أن النبيت ... راسٍ بيثرب ميزانها

حِسَان الوجوه حِدَادُ السـ ـيوف يبتدر المجد شبّانها[١]

ومعنى ذلك أن الصورة الأولى للنقائض تمتد بجذورها إلى شعر العصر الجاهلى، وإن كانت هذه الصورة - كما قدمنا - بسيطة عفوية، شأن جمهرة الشعر الجاهلى، كما كانت تقترن باحتدام الصراع القتالى وتواكبه، حتى إذا ركدت ريحه ركدت هذه النقائض بركودها، ومن ثم لم تكن فى الأعم الأغلب تحمل خاصية الديمومة والاستمرار.

وفى مطلع الإسلام يتقدم بنا فن النقض خطوة أخرى عما كان عليه فى العصر الجاهلى، وصحيح أن طابع التلقائية والبساطة ما زال يوجد هنا كما وجد من قبل، ولكن الجديد فى تلك الملاحاة الشعرية التى دارت بين شعراء المسلمين وشعراء المشركين فى عهد الرسول ﷺ أنها كانت تتم لا فى ظل الإحساس بواجب القبيلة فحسب، بل فى ضوء الشعور الدينى وفى وهجه، ثم وفرة نماذجها واستمرارها النسبى باستمرار الغزوات والمعارك التى دارت بين الفريقين، وهى معارك لم تفتر ولم تنقطع حتى استتب أمر الإسلام.

ثم إن هذه الصورة الثانية من النقائض فى مطلع الإسلام تختلف عن سابقتها الجاهلية فى نوع الأفكار ونسيج المعانى الذى تشف عنه، خاصة فى شعر المسلمين، ففى شعر هؤلاء يحل الاعتزاز بالله ورسوله محل الاعتزاز التقليدى بالعرق والعشيرة، ويحل التنديد بالضلالة والبغى محل الطعن الصريح فى الأنساب والأحساب، إليك مايقوله ضرار بن الخطاب فى يوم بدر:

عجبتُ لفخر الأوس والحَيْن دائر ... عليهم غدًا، والدهر فيه بصائر
وفخرِ بنى النّجار إن كان معشر ... أصيبوا ببدر كلهم ثَمّ صابر
فإن تك قتلى غُودرتْ من رجالنا ... فإنا رجال بعدهم سنغادر

فيرد عليه من المسلمين كعب بن مالك:

عجبت لأمر الله والله قادر ... على ما أراد، ليس لله قاهر
قضى يوم بدر أن نلاقى معشرا ... بَغوْا، وسبيل البغى بالناس جائر
فلما لقيناهم وكل مجاهد ... لأصحابه مستبسل النفس صابر
شهدنا بأن الله لا رب غيره ... وأن رسول الله بالحق ظاهر[٢]

---

(١) انظر: تاريخ الشعر السياسى - ص ٣٩ - ٤٠، والنبيت المشار إليه هو عمرو بن مالك بن الأوس.

(٢) سيرة ابن هشام - جـ ٣ - ص ١٣ وما بعدها.

فالتعجب من فخر الأوس وهم مهددون بدنو الآجال، ينقضه عند كعب التسليم بقدرة الله التى لا تعلوها قدرة، وحين ينسب ضرار ما حدث فى بدر إلى تقلبات الدهر، يرجعه كعب إلى إرادة الله، وحين يصف الأول قتلى بدر من المشركين بالصبر، ينعتهم الثانى بالبغى والجور، مستبقيا الصبر لأصحابه من مجاهدى المسلمين الذين تذرعوا بجناح الإيمان يستظلون به وقت الشدة.

وأحيانا كان الباعث الدينى يمتزج برواسب الانتماء القبلى، وهى رواسب كانت تتحول فى نقائض شعراء قريش إلى إحساس جاهلى عارم بالعرق والعشيرة، ولكنها فى نقائض شعراء المسلمين كانت تترقرق على استحياء بعد أن هذبتها أخلاقيات الإسلام وأطفأت نارها، فإذا ذكر عبد الله بن الزبعرى يوم أحد، ورمى الخزرج بالخور فى القتال، والفرار عند اشتداد البلاء :

ليت أشياخى ببدر شهدوا ... جَزَع الخَزرج من وقع الأَسَلْ
حين حكّت بقباء بَرْكَها ... واستحرَّ القتل فى عبد الأشَل
ثم خَفُّوا عند ذاكُم رُقَّصا ... رَقَص الحَفّان يعلو فى الجبل
فقتلنا الضِّعف من أشرافهم ... وعَدَلْنا مَيْل بدر فاعتدل[١]

رد عليه حسان بن ثابت ، مذكرا أن الحرب سجال :

ذهبت يابن الزبعرى وقعة ... كان منا الفضل فيها لو عدل
ولقد نلتم ونلنا منكم ... وكذاك الحرب أحيانا دُول

ثم معيرا مشركى قريش بهزيمتهم فى بدر:

وتركنا فى قريش عورة ... يوم بدر وأحاديث المَثَل[٢]

على أنه إذا كانت جمهرة النقائض الواردة من شعر هذه الفترة يلتزم فيها بوحدة الوزن والتقفية بين القصيدتين المنقوضة والناقضة، فإن عفوية الطابع الفنى سرعان ما تبرز حين نجد بعض هذه النقائض لا يتقيد بتلك الوحدة الموسيقية، وقد أورد ابن هشام فى سيرته نموذجين لضرار بن الخطاب فى يوم أحد، أولهما من قافيةالعين والآخر من قافية القاف، ومع ذلك فقد رد عليهما كعب بن مالك بقصيدة لامية[٣].

---

(١) البرك: الصدر، عبد الأشل: بريد بنى عبد الأشهل، الرقص: المشى السريع، الحفان: صغار النعام - سيرة ابن هشام - جـ ٣ - ص ١٤٤.

(٢) السابق - ص١٤٤.

(٣) السابق - ص١٥٢ - ١٥٦.

والدلالة الكبرى التى يخرج بها من يتصفح هذه النماذج وأمثالها أن فن النقض كما عهدناه فى العصر الأموى ليس جديدًا على الشعر العربى، فبواكيره الأولى موجودة فى الشعر الجاهلى، وموروثه القريب ماثل فيما كان يتطارحه شعراء المسلمين والمشركين فى مطلع الدعوة الإسلامية، وإذا كان ثمة من اختلاف بين نقائض العصر الأموى وسابقاتها، فإنه اختلاف أملته سنة التطور، وأعانت عليه جملة الظروف السياسية والاجتماعية التى سبق أن أو مأنا إليها، وعودة الصراع القبلى والمزاحمة السياسية ضارية عنيفة، توجه حركة الجماعة وانتماءاتها، وتقود - فيما تقود - خطوات الشعراء والمبدعين.

من ثم نرى الباعث الدينى الذى أملى نقائض كعب بن مالك وعبد الله بن رواحة وحسان بن ثابت وأضرابهم يفسح المجال من جديد للباعث القبلى، ونرى مطارحات الهجاء فى صورتها البسيطة وقد تحولت إلى فن مركب لا يكتفى فيه الشاعر بالتزام الوحدة الموسيقية ونقض المعانى التى طرحها خصمه، بل يقدم عليه مستعينًا بكل مذخوره الثقافى ومعارفه بأيام العرب وتاريخهم، وأنساب القبائل ومفاخرها ومثالبها، وفى رفقة هذا التركيب الفنى لا تعود النقائض مجرد انفعالات طارئة موقوتة، بل تغدو أشبه بغذاء يومى يتناوب على مائدته الشعراء، وتصاغ فيه عشرات القصائد، ويتخصص فيه شعراء بأعينهم، كما يتخصص الصانع الماهر فى ضرب من النشاط يحسنه ويتفوق فيه وينذر نفسه له، فلا يكاد الواحد من هؤلاء يتلقف ما يوجهه إليه خصمه حتى ينقضه عليه بقصيدة من نفس البحر والروى، وكأن النقائض على هذا النحو رسائل متبادلة يحرص كل من الشاعرين المتخاصمين على تواترها واستمرارها، أما وسيلة انتقال هذه الرسائل فقد نهض جمهور السامعين بعبئها، فقد كان هؤلاء يتحلقون حول الشاعر حتى إذا فرغ مما يقول نهضوا بما قال إلى خصمه، ثم سعوا إلى الأول برد صاحبه عليه، وهكذا لعب الجمهور فى هذه النقائض دورًا بالغ الأثر، وهو دور يؤكده ابن سلام فى طبقاته حين يحكى أن الحجاج قال يومًا للفرزدق وجرير: ائتيا فى لباس آبائكما فى الجاهلية، فجاء الفرزدق وقد لبس الخز والديباج وقعد فى قبته، وشاور جرير دهاة بنى يربوع فقالوا: ما لباس آبائنا إلا الحديد، فلبس درعًا وتقلد سيفًا وأخذ رمحًا وركب فرسًا ثم جاء إلى الفرزدق فى جمع من بنى يربوع قائلا:

لبستُ سلاحى والفرزدق لعبة عليه وشاحا كُرَّج وجلاجلُهْ
أعدُّوا مع الخَزّ المَلَاب فإنما جرير لكم بعل وأنتم حلائله

ثم رجعا فوقف جرير فى مقبرة بنى حصن، ووقف الفرزدق فى المربد. يقول محمد بن زياد: «كنت أختلف بينهما يومئذ، فكأن جريرًا كان يومئذ أظفرهما[1]».

(١) طبقات الشعراء -ص١٤٤. والكرج فى البيت الأول هو المهر، والملاب نوع من الطيب.

وتلك قصة إن صحت فإنها توحى بالإطار القبلى الذى كانت تتم فيه هذه النقائض، كما تشير إلى أن الجمهور لعب فى هذه النقائض دورًا لا يستهان به بجوار دور الشعراء، لأنه أشعرهم أنهم لا يتحركون فى فراغ، وجعل أعينهم باستمرار مصوبة نحوه، وأثار فيهم نوازع التجويد والتفوق رغبة فى إثبات الذات، وامتص حدة الخصومة بينهم فمزجها بطابع المنافسة الفنية الخلاقة.

وقد يبدو من تلك الصورة الجديدة التى تطور إليها فن النقائض - صورة المبارزات الكلامية - أن الغاية الأولى من النقائض لم تعد محصورة فى التحدث باسم القبيلة أو الدفاع عنها، وأن مركز الثقل فى هذه الغاية قد انتقل إلى الرغبة فى اللهو والإضحاك وقطع أوقات الفراغ الهائل الذى لم يكن يعرفه العربى فى الجاهلية إلا قليلا، إذ كان مشغولا بالبحث عما يقيم أوده، أما اليوم فقد كفته الفتوح والغزوات ودواوين الحكومة مئونة ذلك، فذهب يبحث عن شىء يلهو به ويقطع أوقات فراغه، وقام له الشعراء بما ابتغى، راجين فى المقام الأول أن ينالوا رضا الجمهور وأن يؤكدوا تفوقهم على خصومهم[١].

ولو صح تضاؤل الباعث القبلى لانتفى أهم محرك للنقائض فى هذه الفترة، ولما آزرت بنو يربوع شاعرها جريرا على النحو الذى ورد فى الرواية التى أسلفناها، ولما دفعت مجاشع إلى الأخطل بفيض من الدراهم والحملان والثياب كى يفضل شاعرها الفرزدق على خصمه العريق من بنى يربوع، ولو صح أن دواوين الخلفاء قد قامت للشعراء وذويهم بما ابتغوا لما قرأنا فى كتب التراث تلك الشكايات الشعرية الضارعة من سوء الحال وفراغ ذات اليد وجور بعض الولاة، وقد أورد ابن سلام أطرافا من هذه الشكايات فى شعر الراعى النميرى، سواء منها ما تقدم به إلى بشربن مروان، أو ما توجه به إلى عبدالملك بن مروان مباشرة[٢].

والحق أن النقائض لم تكن تخلو فى مبتداها ومسارها من عاملين جوهريين يحركان قرائح الشعراء ويدفعانهم إلى القول: عامل قبلى، وعامل فنى. فأما أولهما فقد كان الأساس الذى نهضت عليه النقائض فى العصر الأموى ومن قبله فى العصر الجاهلى، فالشاعر فى النقائض لا يتحدث عن نفسه قدر ما يتحدث عن القبيلة التى ينتمى إليها نسبا أو ولاء، وهو لا يعيب خصمه بنقائصه الذاتية قدر ما يطعنه فى آبائه وأجداده، ولا يركز على علاقاته الخاصة بخصمه قدر ما يركز على علاقات قبيلته بقبيلة خصمه وما كان يدور بين القبيلتين من صراع، وما أسفر عنه هذا الصراع من انتصارات وهزائم، ومن ثم كان العامل القبلى هو المحور الأساسى الذى

---

(١) انظر: التطور والتجديد - ص١٣٣ - ١٣٤.

(٢) طبقات الشعراء ص١٧٤ - ١٧٥.

قامت عليه النقائض، وظل كذلك حتى بعد أن تطورت إلى صورتها النهائية فى العصر الأموى.

وأما العامل الفنى فكان يتمثل فى حرص كل شاعر على إبراز مهارته الفنية وبراعته فى إفحام خصمه برد معانيه وصوره وقوافيه وأوزانه، كما يتمثل فى مقدرته على السخرية من صاحبه وتحقيره بتصويره فى صورة كاريكاتيرية تبالغ فى تجسيم العيوب الحسية والنفسية، فيستثير بذلك منابع التفكّه فى وجدان الجماهير ويشركهم معه فى الهزؤ بصاحبه والتهكم به أو بآبائه، وهذا ما كان يفعله جرير حين يرمى خصمه الفرزدق بأنه قين وابن قين، لمجرد أن جده صعصعة كان يمتلك قيونًا كثيرين فى الجاهلية، ومن ثم يستغل جرير هذه الناحية فى تاريخ صاحبه، فيحاول تضخيمها وتكبيرها حتى تغطى على كل ما عداها، فلا يبقى منه إلا أنه قين من صلب قين، ولا يبقى من آثاره فى الحياة سوى المرجل والكير والقدوم والكلبتين وغيرها من أدوات الحدادة، وهكذا تتسع مواطن الضعف فى شخصية الخصم حتى تحجب كل ماسواها، فتهيج بذلك نوازع السخرية والتندر لدى القطاعات العريضة من جماهير النقائض.

وأبرز فرسان النقائض فى هذا العصر ذلك الثالوث الذى ذاعت شهرته ليس فى فن الهجاء فقط، بل فى الشعر الأموى بعامة، ونعنى به الثالوث المكون من جرير والفرزدق والأخطل، وأولهم كان قاسمًا مشتركا فى معظم نقائض هذه الفترة، فقد تهاجى مع الفرزدق من ناحية، كما تهاجى مع الأخطل من ناحية أخرى، ولكن نقائضه مع الأول أكثر، وتاريخها أطول، إذ امتدت مع الزمن نحوا من أربعين عامًا، على حين شغلت نقائضه مع الأخطل نحو عشرين سنة، ولعل فى هذا التاريخ الطويل الذى استغرقته نقائض جرير والفرزدق، وتلك الوفرة من النماذج التى رويت عن كليهما فى هذا المضمار، ما يقتضى منا أن نقف وقفة خاصة عند هذين الشاعرين وانتماءاتهما القبلية والسياسية، ممهدين بذلك لنظرة تحليلية عامة فى النقائض وطابعها الفنى ودلالاتها التاريخية.

* * *

أما جرير فمن بنى كليب بن يربوع أحد أغصان تميم، فهو إذن من أبناء عمومة الفرزدق وذوى قرباه، بيد أن هذه القرابة البعيدة بين الشاعرين لم تكن مؤثرة فى تصنيف مواقفهما السياسية والقبلية، لأن تميما - التى ينتمى إليها كلا الشاعرين - لم تمثل فى تلك الفترة كيانًا عضويًا واحد الرأى والميل والمصلحة، بل كانت بالأحرى مجموعات من القبائل والعشائر تختلف طرائقها واتجاهاتها باختلاف مقوماتها التاريخية، ثم باختلاف مواقفها من الأحداث وحجم ما تفيده منها.

من ثم لا نرى عجبًا فى أن يكون جرير - فى أول أمرة خاصة - زبيرى الهوى قيسى

النزعة، على حين كان الفرزدق تميمى النسب والنزعة، وقد كان اختلاف المنازع على هذا النحو من بين الأسباب الكبرى التى حركت نيران التهاجى بين الشاعرين، واقترنت بهذا حادثة يحكونها باعتبارها المثير المباشر لهذه النيران، إذ اشتبك جرير مع شاعر من مجاشع قوم الفرزدق يسمى «البعيث»، ففزع هذا إلى الفرزدق يستنصره على جرير، والفرزدق يومئذ بالبصرة وقد قيد نفسه وآلى ألا يفك قيده حتى يقرأ القرآن، ولكنه تحت إلحاح قومه وأمام استغاثة البعيث به لم يجد مفرًا من الاصطدام بجرير، على حياء فى أول الأمر، ثم فى سفور وضراوة آخر الأمر، حتى استطار بينهما الهجاء، وحتى نسى العملاقان فى خضم المعركة مفجرها الأصيل، ومن ثم نرى البعيث يقول مخاطبا الفرزدق، بمرارة من يحس أنه كاد يضيع فى غبار الفارسين البارزين:

أَشارَكْتَنِى فى ثعلب قد أكلتُهُ فلم يَبْق إلّا رأسُه وأَكَارِعُهْ؟![1]

ويشغل الشاعران بأنفسهما وبهذه المبارزة الكلامية التى دامت بينهما ما يربو على أربعين عامًا، حتى مات الفرزدق سنة ١١٤ هـ، وتبعه جرير بعد ذلك بأشهر معدودات، فإذا سلمنا مع ذلك بقول من يقول إن جريرا عاش نيفا وثمانين سنة[2]، فمعنى ذلك أن شاعرنا قد ولد حوالى سنة ٣٠هـ، أى فى خلافة عثمان بن عفان، وليس فى خلافة على بن أبى طالب كما يذكر بروكلمان[3].

كان جرير مقيما باليمامة، على حين كان الفرزدق فى العراق، وكانت نقائضهما تنتقل بينهما كما ينتقل البريد، بيد أن وجود الفرزدق بالبصرة حيث أسواق الشعر ومنابره، وحيث رواته ونقاده والمتذوقون له، جعل شعر الفرزدق أقرب منالا وأكثر ذيوعا وأشد استثارا بالاهتمام، فلما رأى ذلك قوم جرير طلبوا من شاعرهم أن يترك اليمامة ويرحل إلى العراق، حيث يكون قريبًا من نقاد الشعر ورواته وجمهوره، فرحل جرير إلى البصرة حوالى سنة ٧١هـ، بعد أن كانت رسائله الهجائية مع خصمه قد استمرت قرابة سبع سنوات.

وفى العراق يقدر لجرير أن يتصدى لجبهتين، فبالإضافة إلى الفرزدق نرى الظروف تدفعه إلى الاصطدام بالأخطل، وقد فتحت عليه هذا الجبهة الثانية حين أرسل الأخطل ابنه مالكا إلى العراق لكى يأتيه بالخبر اليقين فى هذه الخصومة الناشبة بين الفرزدق وجرير، فارتد إليه ابنه قائلا: جرير يغرف من بحر، والفرزدق ينحت من صخر، فقال الأخطل: فجرير أشعرهما، ثم أنشد:

---

(١) انظر: ابن سلام: طبقات الشعراء - ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٢) الشعر والشعراء ص ١٧٩.

(٣) بروكلمان: تاريخ الأدب العربى - جـ١ - ص ٢١٥.

إنى قضيتُ قضاء غير ذى جَنَفٍ لَمّا سمعت ولما جاءنى الخبرُ
إن الفرزدق قد شالت نعامته وعضه حيّة من قومه ذكَرُ[١]

لكن الأخطل لا يلبث أن يغير من رأيه هذا حين يدخل بشر بن مروان الكوفة بعد مصرع مصعب بن الزبير حاكم العراق سنة ٧١هـ، وكانت لبشر مجالس أدبية يجتمع فيها بأرباب القول من الشعراء، فيكون من بين من يصلون إليه الأخطل شاعر بنى أمية ولسانهم الناطق، ولأن بنى تميم يعرفون رأيه فى شاعرهم فإن سيدا من ساداتهم هو محمد بن عمير بن عطارد يبعث إليه بدراهم وحملان وكسوة وخمر، راجيًا أن ينتصر الأخطل للفرزدق شاعر تميم، على جرير شاعر قيس، ويصادف هذا الرجاء عداوة قبلية كامنة فى نفس الأخطل ونفوس قومه تجاه قيس، فإذا به ينسى سابق رأيه، وإذا به ينحاز صراحة إلى جانب مجاشع، ناعيا على جرير وقومه قصورهم فى ميزان الفضل:

اخْسَأْ إليك كليبُ، إنّ مُجاشِعًا وأبا الفوارس نَهْشَلاً أَخَوانِ
قوم إذا خطرتْ عليكَ قُرومهم جعلوكَ بين كَلاَكل وجِران
وإذا وضعتَ أباكَ فى ميزانهم رَجَحُوا وشال أبوكَ فى الميزان[٢]

ورغم أن هذا التفضيل قبلى أكثر من أن يكون تفضيلا فنيًا، لأنه يمس عشيرتى الشاعرين أكثر مما يمس وجوه إبداعهما الشعرى، فإنه قد أثار ثائرة جرير على الأخطل، ودفعه إلى الرد عليه بأبيات لاذعة المرارة، مباشرة فى رفض هذا الحكم الجائر ورفض من أصدره:

ياذا العَبَاية إنّ بِشْرًا قد قَضَى أنْ لا تَجُوزَ حكومة النَّشْوان
فَدَعُوا الحكومة، لستُمُ مِن أهلها إنَّ الحكومة فى بنى شَيْبَانِ[٣]

ومن ذلك الحين يستطير الهجاء بين جرير والأخطل، مثلما كان قد استطار بينه وبين الفرزدق، وتستمر هذه الخصومة الأدبية بينهما حتى يتوفى الأخطل سنة ٩٠هـ، بعد قرابة عشرين سنة من الهجاء الموصول بينه وبين خصمه.

أما صلة جرير بالأمويين فقد بدأت بداية عسرة، بسبب تشيعه لابن الزبير وعصبيته للقيسيين، ومن ثم لم يتح له الاتصال الوثيق ببنى أمية إلا بعد أن توسط له واحد من أشهر

---

(١) الجنف: الميل والجور، شالت نعامته: إشارة إلى ذهاب عزه وزوال مجده.

(٢) كليب: قوم جرير، مجاشع: قوم الفرزدق، القروم: جمع قرم وهو السيد فى قومه، الكلاكل: الصدور، الجران: مقدم العنق.

(٣) طبقات الشعراء - ص١٥٨ - ١٦٣.

القيسيين وأقربهم إلى بنى أمية وهو الحجاج بن يوسف الثقفى، وربما لم يؤثره الحجاج ويعطف عليه إلا لسابق تاريخه فى المنافحة عن قيس، ولكن هذه الوساطة لم تكن لتنجح فى تحقيق هدفها إلا بعد إلحاح وشفاعة، حتى قبل عبد الملك بن مروان أن يمثل الشاعر بين يديه، فلما أذن له أنشده جرير قصيدته الشهيرة:

أتَصْحو أم فؤادك غير صاح عشيّـة هَمَّ صحبك بـالرّواحِ

ويقال إن عبد الملك لم يسترح إلى هذا المطلع، حتى بلغ الشاعر قوله:

ألستم خير من ركب المطايا وأنْدى العالمين بُـطُون راحِ

فطرب الخليفة واهتز إعجابًا، وقال: «من مدحنا منكم فليمدحنا بمثل هذا أو يسكت»[١]، ثم أثابه وأجزل له العطاء، ومنذ ذلك الحين تتوثق أواصر الشاعر بالقصر الأموى، ويصبح من شعرائه المتحمسين فى الدعوة له والإشادة به.

وأمويات جرير بما فطر عليه قائلها من لين وتواضع وضراعة أقرب إلى مواصفات المديح التقليدى القائم على المبالغة فى تعظيم الممدوح والتنويه بمآثره ومآثر آبائه، كما أنها فى محاولة إسباغ الفضائل الدينية على خلفاء بنى أمية تنضح بروح سياسية تذكرنا بما كان يقوله شعراء المذاهب والفرق فى الانتصار لأئمتهم، والاحتجاج لمذاهبهم. تأمل كيف يصير الوليد بن عبد الملك على قلمه خليفة لرب العالمين، عارفا بالحق، منصورا بالهداية والتقوى:

أتَتْنَا لك البشرى فقرّت عيوننا ودارت على أهل النفاق المَخَاوفُ
فـأنت لـرب العـالمين خليفـة ولِيٌّ لعهد الله، بالحق عارف
هداك الذى يهدى الخلائف للتُّقَى وأُعطِيتَ نصرا لم تَنَلْه الخلائف[٢]

بل انظر كيف يستغل الشاعر بعض مصطلحات الشيعة فى مدح أئمتهم، فيصف هشام بن عبد الملك «بالمهدى» فى قوله:

تَعَـرضت الهمـومُ لنـا فقـالت جُعـادةُ: أىّ مُـرْتَحَـل تـريـدُ؟
فقلتُ لهـا الخليفةَ غيـر شكّ هو المهدىّ والحكَم الـرشيد[٣]

ويحتج بواقع الحال فيربط - بأسلوب يشبه أساليب المتكلمين - بين إرادة الله

(١) ديوان جرير ص٧٦.
(٢) السابق ص٣٠٣.
(٣) السابق ص١١٦.

واستقرار الخلافة فى بنى أمية، ولولا ما حباهم به الله من فضل لما قضى لهم بالملك قضاء لا تحويل فيه. هكذا يخاطب الشاعر عبد الملك بن مروان:

الله طوقك الخلافة والهدى ... والله ليس لما قَضَى تبديلُ
إن الخلافة بالذى أبليتُم ... فيكم، فليس لمُلكها تحويلُ[١]

وجرير بهذا ليس مداحا فحسب؛ بل هو مدافع عن الأمويين وحكمهم، ينافح عن حقهم فى الخلافة؛ ويهاجم خصومهم مهاجمة عنيفة، فهو من هذه الزاوية شاعر سياسى[٢] واضح النهج والأداة، شاعر سياسى لأنه فى تجسيده نموذج الحاكم الأموى المسلم لم يكن ينطلق من اقتناع ذاتى خالص، كذلك الذى كان ينطلق منه ابن قيس الرقيات فى دعوته للزبيريين، أو ذلك الذى كان ينطلق منه الكميت فى تشيعه للهاشميين، بل كان فى كل حالاته صاحب قلم رأى الريح تهب أموية فسار معها، وكان صاحب مصلحة رأى الأمويين حريصين على أن يشاد بفضلهم فى مواجهة خصومهم السياسيين، ورأى حجم أعطياتهم يقاس بحجم تبريز الشعراء فى هذا الجانب، فلم يجد مانعًا أن يمضى فيما مضى فيه سواه، وأن يغلو فى هذا الجانب بقدر ما شاء له مزاجه الرخىّ الضارع.

* * *

أما الفرزدق فلم يكن له مثل هذا التكوين النفسى اللين، وهو لم يلقب بالفرزدق إلا لجهامته وغلظ طبعه، أما اسمه فهو همام بن غالب بن صعصعة بن ناجية بن عقال، وهو من مجاشع أحد فروع دارم، وهذه بدورها إحدى القبائل المشهورة من تميم.

وأسرة الفرزدق معروفة بالفضل والجاه منذ جاهليتها، فقد كان جده صعصعة عظيم القدر فى الجاهلية، ويروى أنه كان يفتدى الموءودات بأمواله حتى بلغ عدد من افتداهن ثلاثين، كما يروى أنه وفد على الرسول ﷺ، أما أبوه غالب فلم يكن أقل شهرة بالكرم والعطاء، وقد عقر كل إبله مرة واحدة حين أخبروه أن سحيما بن وثيل الرياحى ينافسه فى إطعام ذوى الحاجة، قال أبو عبيدة: «فلما بلغ ذلك غالبا ضحك، وكانت إبله ترد لخمس، فلما وردت عقرها كلها عن آخرها، فالمكثر يقول كانت أربعمائة، والمقلل يقول كانت مائتين[٣]»، وأيًا كان العدد فإن الحادثة فى حد ذاتها تدل على أن فضل هذه الأسرة فى الإسلام - إذ حدث هذا فى خلافة

---

(١) السابق ص ٣٨٠.
(٢) انظر فى هذا المعنى د. شوقى ضيف: العصر الإسلامى - ص ٢٨٢.
(٣) نقائض جرير والفرزدق - مجلد ٢ - جـ١ - ص ٦٢٥.

عثمان - لم يكن يقل عما عرفت به من فضل فى الجاهلية.

وبالرغم من أن مصادر الأدب العربى لا ترشد إلى تاريخ قاطع للعام الذى ولد فيه الفرزدق، فإن بعض الباحثين المعاصرين يستنتج من أخبار الشاعر ما يرجح أنه ولد حوالى سنة عشرين للهجرة[١]، فقد حكى الفرزدق عن نفسه أنه كان يهاجى الشعراء أثناء خلافة عثمان، وكان ما يزال غلامًا، ومعلوم أن خلافة عثمان قد امتدت من سنة ثلاث وعشرين إلى خمس وثلاثين هجرية، كما ورد فى الأخبار أن أباه قدم به على «على بن أبى طالب» عقب موقعة الجمل سنة ٣٦هـ، فنصحه على بأن يعلمه القرآن[٢].

ويبدو أن حياته الزوجية لم تكن موفقة تمامًا، فقد تزوج أكثر من مرة، ولكن شعره وأخباره لا يفيضان فى الحديث عن إحدى زوجاته بقدر ما يفيضان فى الحديث عن زوجته «النوار»، وهى بنت أعين بن ضبيعة المجاشعى الذى وجهه على بن أبى طالب أيام التحكيم إلى البصرة فقتله الخوارج هناك.

ويبدو أيضًا أن زواجه بها تم عن طريق خدعة طريفة تسهب كتب الأدب فى ذكرها، فقد خطبها رجل من قريش وأهلها بالشام، فبعثت للفرزدق أن يكون وليها، إذ كان أقرب من هناك إليها، ولكن الفرزدق بدلا من أن يزوجها ممن خطبها يعلن على رءوس الملأ أنها قد وكلته، وأنه بناء على هذا التوكيل يتزوجها على مائة ناقة حمراء، فضجت «النوار» وخرجت إلى عبد الله بن الزبير وتشفعت بزوجته خولة بنت منظور بن زبان، ونزل الفرزدق على حمزة بن عبد الله بن الزبير مستعينا به، فنجح مسعى خولة وأخفق حمزة، فقال الفرزدق وقد أمره عبد الله بن الزبير أن لا يقربها حتى يتحاكما إلى عامله بالبصرة:

أمّـا بَنُوه فلم تَنْجـح شفـاعتُهم ... وأَنْجحَت بنت منظورِ بنِ زَبَّانَا
ليس الشفيعُ الذى يأتيك مُؤْتَزِرًا ... مثلَ الشفيع الذى يأتيك عُرْيَانَا[٣]

وأيًا كانت نهاية هذا الخلاف بين الزوجين، فإن حياتهما - وقد بدأت بخدعة - لم تكن لتقوم على وفاق، خاصة وأن الفرزدق بطبعه كان فاسقا مستهترا، بينما كانت النوار صالحة حسنة الدين، ومن ثم لا عجب أن يؤدى اختلاف الطبع على هذا النحو إلى الطلاق، بعد فترة من الحياة الزوجية حافلة بالشجار والشقاق.

---

(١) دكتور شوقى ضيف - العصر الإسلامى - ص٢٦٧.
(٢) مقدمة ديوان الفرزدق - ص٢.
(٣) ابن قتيبة: الشعر والشعراء ص١٨٦ - ١٨٧.

أما مواقف الفرزدق السياسية فقد كانت دائمًا محكومة بعامل أساسى، وهو سياسة قبيلته تميم ومصالحها، وقد دفعه شرف مكانته فى قومه أن يظل باستمرار اللسان المنافح عن تميم مهما لقى فى سبيل ذلك من الأذى، ولم يشذ عن هذا إلا فى عهد ولاية الحجاج على العراق، فقد مدحه الشاعر وأسرف فى مديحه مع أنه كان قيسيا، ولكنه لا يلبث أن يفىء إلى عصبيته التميمية بعد موت الحجاج فيهجوه ويقذع فى هجائه، ويبدو أنه فى الحالة الأولى لم يكن سوى خائف من بطش الحجاج وقسوته، أما فى الحالة الثانية فقد كان كالعهد به تميميا صريحا، مقياسه السياسى صالح قبيلته ونزعتهم العامة.

ولم تكن علاقة الشاعر بالأمويين وثيقة فى بادىء الأمر، أو قل إنها لم تكن علاقة الرضا المطلق من قبل كل من الطرفين، فقد وقف الفرزدق موقف الناقد لمعاوية بن أبى سفيان حين أدخل ميراث عمه «الحتات» بيت المال، وقال فيه - وكان ما يزال بعد غلامًا - قصيدة غاضبة سبق إيراد بعض أبياتها، ويبدو أن هذا الموقف من الشاعر - بالإضافة إلى بعض تصرفات شخصية أخرى - قد أوغر عليه صدر زياد بن أبى سفيان مع استبداده وجبروته، فطارده مطاردة لا هوادة فيها، وفر الشاعر يلتمس فى فجاج الأرض مهربا، يقيم عند هؤلاء ليلة، ويقضى عند أولئك يوما، حتى أعياه الفرار، وضاقت عليه الأرض بما رحبت، فبلغ «زيادا» ما يعانيه من أهوال المطاردة وذلة التشرد، فكأنه رق له وقال: لو أتانى لأمنته وأعطيته، فأخبروا الفرزدق بذلك فقال من أبيات قصيدة طويلة له:

دَعَانِى زياد للعَطَاء ولم أَكُنْ ... لآتِيَهُ ما ساق ذُو حَسَب وَفْرَا
وعند زياد لو يُرِيدُ عطاءهم ... رجال كثير قد ترى بِهِمُ فَقْرَا

وواضح أن هذا الرفض المهذب لم يكن إلا لأن الشاعر لم يأمن لعهد الأمان الذى قطعه له «زياد»، فقد كان جبارًا لا يؤمن له جانب، ومن ثم يواصل الشاعر فراره حتى يصل إلى المدينة وعليها من ولاة بنى أمية سعيد بن العاص، فيستغيث به الفرزدق فيغيثه سعيد، ويقيم فى حماه بالمدينة مرة، وبمكة مرة، حتى يأتيه ذات يوم نبأ وفاة زياد، فتنفرج كربته، ويزايله همه، ويرحل عن المدينة ولسانه يهتف بأبيات يرد بها على مسكين بن عامر الذى فاضت عينه بالبكاء على زياد:

أَمِسْكينُ أبكى الله عينك، إنما ... جرى فى ضلالٍ دمعُها فَتَحَدَّرا
رثيتَ امْرَءا من أهل مَيْسان كافرا ... ككِسْرى على عِدّانه وكقيصرا[1]

(١) نقائض جرير والفرزدق ص ٦٢١.

وهذه العلاقة المتوترة بين الشاعر وأحد أقطاب الأمويين كانت كافية لتبعده عن قصر الخلافة لفترة طويلة من الزمن، فلم تتصل أسبابه بأسباب خلفاء بنى أمية طيلة حكم معاوية وابنه يزيد ومن بعدهما، حتى إذا كان عبد الملك وابنه الوليد رأيناه يلم بهما إلمامًا خفيفًا لبعض مصالح قومه.

ومنذ ولاية سليمان بن عبد الملك يبدأ اتصال الفرزدق اتصالا نشيطًا بقصر الخلافة، وتتوالى مدائحه فى سليمان سريعة متلاحقة:

نهضتُ بأكتاف الجناحين نهضة إلى خير أهل الأرض فرعا وعنصرًا

ويبالغ فى مدحه تلك المبالغة المسرفة التى تصل أسباب ممدوحه بالسماء، وتجعله حاملا لأمانة الله فى الأرض:

فأصبح صُلب الدين بعد الْتِوَائِهِ على الناس بالمهدىّ قُوِّم مائلُهْ
حملتَ الذى لم تَحْمل الأرضُ والتى عليها فأديتَ الذى أنت حامله
إلى الله مِنْ حمل الأمانة بعد ما أُضِيعَتْ وغال الدين منا غَوَائِلُهْ[1]

وتستمر صلة الفرزدق بخلفاء بنى أمية بعد سليمان بن عبد الملك، ولكن حبال تلك الصلة لم تلبث على نفس الدرجة من القوة والمتانة، فقد كانت تهتز وتتوتر كلما سمحت الظروف ببعض التناقض بين ولاء الشاعر للبيت الأموى وعصبيته التميمية، أو قل إن حجم هذا الولاء كان يرتهن بمدى ما يمكن أن يقدمه إلى هذه النزعة التميمية التى عاش الشاعر بها وعليها، والتى يعبر عنها فى أجلى صورة قوله:

فَإنْ تُنصفونا يالَ مروان نَقتَرِبْ إليكمْ، وإلا فـأْذَنُـوا ببعـاد
فـإنّ لنا عنكم مَـرَاحًا ومَـذْهبا بِعِيسٍ إلى ريح الفلاة صَوَادِى[2]

فبقدر اقتراب بنى أمية من مصالح تميم ورعايتهم لها يكون اقتراب الشاعر منهم، أما حين يحلو لهم أو لولاتهم أن يهضموا هذه المصالح، أو أن يهملوا واجبات هذه الرعاية، فإن الشاعر ينقلب ساخطًا شاكيا هاجيًا، كما حدث حين عهد هشام بن عبد الملك بولاية العراق إلى خالد القسرى، وكان هذا معروفًا بعصبيته الشديدة لليمنية ضد المضرية، وقد اضطهد تميما وقتل نفرًا من أعلامها، ومن ثم هجاه الشاعر، وهجا معه سيده هشاما، مؤثرًا أن يلقى بعلائقه مع بنى أمية

(١) ديوان الفرزدق - ص ٧٠.
(٢) المصدر السابق - ص ١١.

فى مهب الريح، على أن ينام على ضيم يراد بذويه وأهله، مفضلا - فى التحليل الأخير - انتماءه القبلى على انتمائه السياسى.

هكذا كان الفرزدق قبليا تميميا محضا فى مواقفه جميعا: يتعرض للمطاردة لأنه انتقد معاوية فى ميراث أحد أصوله، ويتعرض للسجن لأنه هجا الرجل الذى اضطهد بنى قبيلته، وينبرى لمناقضة جرير لأن هذا الأخير كان يدافع عن قيس، ولئن كان هذا العنصر القبلى هو المحور الذى ارتكزت عليه حياة الرجل ومواقفه، فإنه لم يكن بعيدا عن فن الشاعر ومميزاته القولية، فصلابته واعتداده بنفسه وإحساسه بكرم محتده ومآثر آبائه جعلت الفخر أقرب فنون الشعر إلى نفسه، ولهذا السبب نراه يجيد ويحلق حينما يعيش ونعيش معه فى رحاب ذلك المجد العريق الذى كان لتميم ومجاشع خاصة فى الجاهلية والإسلام، كما نراه يبذ خصمه العريق - جرير - ويكاد يفحمه حين يعيره بآبائه وأجداده، ويضع ضعفهم وهوان شأنهم فى مقابلة قوة قومه وارتفاع مكانتهم، أما حين يلجأ إلى المثالب الشخصية فقد كان جرير يتفوق عليه بتهكمه اللاذع وسخريته المريرة وهجائه المقذع.

كذلك فإن إحساسه بذاته، وغلظ طبعه، وصلابة شخصيته قد أفسحت الطريق لخصمه كى يتفوق عليه فى مدائحه وغزلياته، فالمديح بصورته التقليدية محتاج إلى بعض من نكران الذات. وبه تذوب شخصية الشاعر إلى حد ما فى شخصية الممدوح، ومن ثم لا تجيد فيه تلك الطبائع الصلدة والأمزجة المؤمنة بتفردها واستقلالها. انظر إلى هذه الاستغاثة الضارعة المستجدية من جرير إلى عبد الملك بن مروان:

سأشكر أنْ رددتَ علىَّ رِيشِى ... وأنْبَتَّ القوادمَ فى جَنَاحِى
أَلَسْتُم خير من ركب المطايا ... وأنْدَى العالمين بُطُونَ رَاحِ

ثم قارنها بهذا البيت الذى أراده صاحبه - الفرزدق - مديحًا لسليمان بن عبد الملك، فإذا به لا يعدو أن يكون إدلالا من الشاعر الذى وفد على هذا الخليفة ولم يفد على خليفة قبله:

فما كنتُ عن نَفْسِى لأرحل طائعا ... إلى الشام حتى كنت أنتَ المُؤمَّرَا

ويصدق على غزليات الفرزدق ما قلناه فى مدائحه، فقد كان جرير أرق منه غزلا وأسخى عاطفة، ولعل جريرا كان يعرف قدر هذا الجانب من جوانب فنه الشعرى حين قال: «لولا ماشغلنى من هذه الكلاب - ويقصد خصومه من الشعراء - لشببت تشبيبًا تحن منه العجوز إلى شبابها»[1].

(١) الشعر والشعراء ص: ١٨٠

ولعله قد اتضح من خلال هذا التصفح السريع لمواقف أبرز شاعرين من شعراء النقائض أن انتماءهما القبلى - نسبا أو ولاء - كان بالغ الأثر فى تحديد مواقعهما السياسية، كما كان له دوره فى تشكيل مزاجهما الفنى بصفة عامة، وصحيح أن كلا من الشاعرين كان يتعرض لتجربة صعبة وامتحان عسير حين يقدر عليه أن يجتاز تناقضا طارئا بين نزعته القبلية واتجاهه السياسى مع بنى أمية، ومن ثم يكون عليه أن يختار بينهما، بيد أن صعوبة هذه التجربة لا تهون من قدر البواعث القبلية بقدر ماتثبتها وتؤكد وجودها، لأن معناها أن هذه البواعث كانت من القوة بحيث تسهم فى تخطيط مواقف الشاعر وتحديد مصالحه، وبحيث توقع الشاعر فى مأزق رهيب حين يطرأ تناقض عارض بين بواعثه ومواقفه.

وإذا كان الأمر هكذا، فإن من المنطقى أن نتساءل: ما طبيعة هذه البواعث التى تبدو على تلك الدرجة من الفاعلية والتأثير؟ وما دلالاتها ومظاهرها فى النقائض؟ وما نوعية الظروف التى أفضت إليها؟

الدلالة القبلية فى النقائض:

وربما كان أهم هذه الظروف وأجلها خطرا هو ما يتمثل فى تلك العداوة التقليدية بين قبيلتى قيس وتميم، وكلاهما من مضر، ومع ذلك اختلف موقفهما السياسى من الدولة أولا، ثم صورهما الشعر القبلى - ثانيًا - حين متنافسين تصل بينهما المنافسة إلى حد الاصطدام.

فأما قيس فقد كان موقفها من الأمويين موقف معارضة منذ البداية، وقد انتهزت فرصة خروج عبد الله بن الزبير عليهم فناصرته وأيدته حتى خاضت تحت لوائه وباسمه موقعة «مرج راهط» التى قضت على بأس الزبيريين، وإن لم تقض على روح العداوة فى نفوس القيسيين تجاه بنى أمية، ولهم العذر، فقد تعرضوا على أيديهم «لمقتلة عظيمة لم ير مثلها قط» - على حد تعبير المسعودى[1].

وأما تميم فقد ظهر فيها الاضطراب وعدم الوحدة العصبية والسياسية العامة، ولكن اهتزاز مواقعها السياسية بالنسبة للأمويين لم يمنعها من الوقوف ضد قيس موقف العداوة الصريحة، وخاصة حين أقدم عبد الله بن الزبير على تولية عبد الله بن خازم القيسى على خراسان، فقام هذا الأخير بتعقب بنى تميم هناك حتى أوقع بهم فى موقعة لم ينسها التميميون بعد ذلك أبدًا، ثم تتتابع حلقات الصراع بين القبيلتين الكبيرتين، فيقوم وكيع بن أبى سود اليربوعى من بنى تميم

---

(١) مروج الذهب - جـ ٢ - ١٠٧.

باغتيال قتيبة بن مسلم القيسى، انتقاما لتلك الثارات القديمة والدماء المراقة، وهكذا تتعاقب مراحل ذلك الصراع الدامى عنيفة ضارية.

ويعنينا من هذه الخصومة موقف كل من الشاعرين الكبيرين - جرير والفرزدق - إزاءها، فرغم أن كليهما من تميم، وكان المتوقع لهذا أن يتعصبا معا ضد قيس، إلا أن سير الأحداث جرى بخلاف المتوقع، فقد وقف الفرزدق فى صف قبيلته تميم ينافح عنها ويشيد بمآثرها، على حين وقف جرير وبنو عشيرته الأقربون من يربوع فى صف قيس يذودون عنها ويفخرون بأمجادها.

ولقد يبدو غريبا أن يقف جرير هذا الموقف من قبيلته الكبرى «تميم»، ولكن لهذا الموقف تفسيره من الناحية التاريخية، فقد وقفت «قيس» - كما سبق أن أشرنا - مع ابن الزبير ضد الأمويين، وشاءت الظروف أن تقف «يربوع» عشيرة جرير فى نفس الناحية التى وقفت فيها «قيس»؛ومن ثم جمع بينهما الميل المشترك إلى ابن الزبير، وبدأت علائقهما السياسية تسير فى اتجاه واحد مناقض لذلك الاتجاه التى كانت تسير فيه سياسة الأمويين، وهكذا وجد جرير نفسه بحكم هذه التطورات مدفوعا إلى مناصرة قيس والوقوف فى صفها، بينما كان الفرزدق طبيعيا مع انتمائه القبلى حين اتخذ لنفسه ذلك الطريق الذى سلكته «تميم» فوقف معها ضد ابن الزبير والقيسيين معه، ولموقف الفرزدق على هذا النحو أيضا تفسيره من الناحية التاريخية، فقومه هم الذين قتلوا الزبير أثناء منصرفه من موقعة الجمل، وقد قيل إن الأحنف بن قيس قد قتله بأيدى بعض قومه من تميم، أو هو - على الأقل - قد أعان على مقتله حين قعد عن حمايته قائلا : ما أصنع بالزبير وقد جمع بين فئتين عظيمتين من الناس يقتل بعضهم بعضًا ؟!!»[1]، وكلا الاحتمالين يؤكد ذلك التناقض العريق بين الفرزدق وقومه من تميم، والزبيريين وأحلافهم من قيس، وقد اصطدم الفرزدق نفسه بابن الزبير حين خاصمته زوجته «النوار» إليه فى مكة، فلم ينصفه منها.

وبإمكاننا أن نستنتج من هذا أن موقف الفرزدق كان منطقيا مع طبيعة العلاقات القبلية السائدة، على حين كان موقف جرير دقيقًا حساسًا، وكانت دقته أكثر ظهورا حين يبرز التناقض حادا بين ولائه لعشيرته الدنيا من بنى يربوع وولائه لقيس، ومن أمثلة ذلك ماحدث حين أقدم وكيع بن أبى سود اليربوعى من تميم على قتل قتيبة بن مسلم الباهلى القيسى، فكان موقف الفرزدق صريحا دامغا يتجلى فيه التعصب للقاتل ضد المقتول، أما جرير فكان بالغ الحرج، لأن القاتل من عشيرته الأقربين والمقتول من حلفائه المفضلين. يقول الفرزدق من قصيدته فى هذا الحدث:

---

(١) مروج الذهب - جـ ٢ - ص ١٠.

فِدًى لسيوف من تميم وفَى بها ... رِدَائى وجَلَّت عن وُجوهِ الأهاتِمِ[١]
شَفَين حزَازات النفوس ولم تَدَع ... علينا مقالا فى وفاءٍ لِلَائِمِ[٢]
جزى الله قومى إذْ أراد خِفَارتى ... قتيبةُ سعىَ الأفضلين الأكارمِ[٣]
كأنك لم تسمع تميما إذا دَعَت ... تميمٌ ولم تَسْمع بيوم ابن خازم
وما لقيتْ قيس بن عيلان وقعةً ... ولا حَرَّ يوم مثل يوم الأراقم

هذه أبيات من إحدى النقيضتين اللتين قيلتا تعقيبًا على هذا الحادث، وهى أبيات تصور جانبًا من موقف تميم كما رآه الفرزدق، وهو موقف تميمى واضح فى بواعثه ومظاهره، ففيه إشارة إلى بنى الأهتم الذين أعمل فيهم قتيبة بن مسلم سيفه فقتله وكيع انتقاما لهم، وفيه اعتزاز بهذا الحدث الذى أراح خاطر التميميين، ورفع عنهم ملامة اللائمين، وفيه إيماء إلى ذلك الصراع السافر العنيف الذى دار بين تميم وعبد الله بن خازم القيسى حين تولى لعبد الله بن الزبير على خراسان، فيه كل ذلك وسواه من الأصباغ القبلية التى تلونت بها نقائض الفرزدق وأهاجيه على اختلافها.

أما رد جرير على الفرزدق فيتبع نفس البحر وذات القافية، شأن كل نقائض العصر الأموى، وفيه يبدو تأرجح الشاعر بين الفخر والاعتذار، الفخر بيربوع لأن القاتل منهم، ولأنهم قرابة الشاعر وعشيرته الدنيا، والاعتذار لقيس لأن القتيل أحد أبنائها، ولأنها منبع هوى الشاعر وموطن انتمائه تحالفًا وولاء.

أَتَمدح يا ابْن القَيْن سَعْدا وقد جرت ... لجِعْثِن فيهم طيرها بالأشَائم[٤]
وتمدح يا ابن القين سعدا وقد ترى ... أديمكَ منها وَاهيًا، غير سالم
وإنك يا ابن القين لستَ بِنافخ ... بِكيركَ، إلا قاعدا غير قائم
فما وَجَد الجيران حَبْل مُجَاشِع ... وَفِيًّا ولاذا مِرَّة فى العزائم[٥]
ولامتْ قريش فى الزبير مجاشعا ... ولم يَعْذُروا مَنْ كان أهل المَلاوِم[٦]

(١) الأهاتم: بنو الأهتم الذين قتلهم قتيبة فقتله وكيع بهم.
(٢) حزازات النفوس: ضغائنها.
(٣) خفره: منعه، وانظر فى التعليق على هذا الموقف: تاريخ الشعر السياسى - ص ٢٢٥ - ٢٢٦
(٤) جعثن: أخت الفرزدق، وقد رميت برجل من بنى سعد زورا وبهتانا، فاستغل جرير هذه الشائعة فى أهاجيه وبالغ فيها.
(٥) المرة: الإحكام والقوة، يريد بذلك أن عزيمتهم واهية، وأنهم قليلو الوفاء.
(٦) يريد بذلك مايروى من أن بنى تميم هم الذين قتلوا الزبير أو أعانوا على قتله ويخص بالذكر من تميم بنى مجاشع عشيرة الفرزدق.

وقالت قريش: ليت جارَ مُجاشع ... دعا شَبَثًا أو كان جار ابن خازم[١]
ولـو حَبْلَ تَيْمِيٍّ تَنَـاولَ جارُكم ... لَمَا كان عارًا ذكْرُه فى المَواسم
فغيـــرك أدّى للخليفـة عهـــده ... وغيرك جَلَى عن وُجوه الأهاتم[٢]
فإن وَكيعا حين خارت مُجاشع ... كَفَى شَعْبَ صدِع الفتنة المُتفاقم
لقد كنتَ فيها يا فرزدق تابعا ... وريشُ الذُّنَابَى تابع للقوادم[٣]
نُدافع عنكم كل يوم عظيمةٍ ... وأنت قُراحِيّ بِسيف الكواظم[٤]
أباهِلَ، ما أَحْبَبْتُ قتل ابن مُسْلِم ... ولا أن تَروُعوا قومكم بالمظالم
أبَاهِلَ، قد أوفيتُم مِنْ دمائكم ... إذا ما قَتلتُم رهْط قيس بن عاصم
تُحَضِّضُ يا ابن القين قيسا ليجعلوا ... لقومك يوما مثل يوم الأراقم[٥]
إذا ركبتْ قيسٌ خيولا مغيرةً ... على القين يَقْرعْ سِنّ خزيانَ نَادِم[٦]

وإنما أوردنا هذا الجزء الطويل من نقيضة جرير، لأنه يدلنا - أولا - على مستوى الصنعة الفنية والثقافية الذى بلغته النقائض فى هذا العصر، فجرير ينقض ما قاله الفرزدق نقضا فنيًا، لأنه يتحرى نفس الوزن وذات القافية اللذين التزم بهما صاحبه، وتلك مهمة صعبة نسبيا من الناحية الفنية، لأنها لا تترك للشاعر الثانى مهمة الاختيار، بل تضع أمامه نمطًا إيقاعيًا عليه أن يتوخاه إذا أراد إثبات تفوقه على خصمه، فالأول يتحدى، والثانى كأنه يقبل هذا التحدى حين يقبل هذا الالتزام الموسيقى.

كذلك يتصدى جرير لنقض مجموعة الصور والمعانى التى دارت عليها قصيدة صاحبه، ومثل هذا اللون من النقض يحتاج إلى إلمام ثقافى واسع، ويستلزم ذهنا مركبا شديد الفطنة إلى الأفكار والوقائع المطروحة، فإذا أشار الفرزدق إلى الأهاتم والثأر لهم، نقضه جرير بأن القائم بهذا الثأر من يربوع فليس له أن يفخر به، وإذا رتب الفرزدق على هذه الواقعة شفاء نفوس قومه برفع

---

(١) شبث بن ربعى الرياحى من يربوع، وعبد الله بن خازم من قيس.

(٢) جلى عن وجوه الأهاتم: ثأر لهم، يشير بذلك إلى أن قاتل قتيبة من يربوع قوم جرير فليس للفرزدق أن يدعى الفخر لنفسه.

(٣) ريش الذنابى: ريش مؤخرة الطائر، القوادم: ريش مقدم الجناح.

(٤) القراحى: من لزم القرية لا يخرج إلى البادية فلا يشهد حربا.

(٥) تحضض: تحض وتغرى.

(٦) القين: المقصود به الفرزدق، يقرع سن الندم: يشعر بأحاسيس الندم، انظر: ديوان جرير - ص٣٦٠ وما بعدها.

اللوم عنهم، رد عليه جرير بأن هذا اللوم باق لم يتحول، ومن أحق باللوم ممن يخفرون ذمة جارهم؟ وإذا ذكر الفرزدق يوم الأراقم وما حل بقيس فيه، حذره جرير من أن يتمنى يوما مثل هذا اليوم، لأن مثله كفيل بأن يقهر الفرزدق وعشيرته ويجعلهم يعضون بنان الندم، حين لا يكون فى الندم من جدوى.

ثم إن هذا الجزء من قصيدة جرير يستوعب - ثانيا - كثرة العناصر القبلية التى يقوم عليها هجاء الشاعر لخصمه، والتى تكاد تعتبر قاسما مشتركا فى معظم نقائض جرير، ومن هذه العناصر رميه لصاحبه بأنه قين وابن قين، لأن جده كان يقتنى بعض القيون فى الجاهلية، ومن ثم يركز جرير على هذه الناحية، متحدثا عن بنى مجاشع دائمًا بالقيون، وكأن هذا الوصف قد أصبح سمتهم الحقة، بها يعرفون، وفيها يمهرون، لا ينازعهم فيها منازع، ولا ينكرها عليهم منكر.

ومن هذه العناصر أيضًا إشارته إلى حادثة جرت لجعثن أخت الفرزدق حين تعرض لها رجل من بنى سعد فرماها جرير به، وأخذ يصورما رماها به وكأنه قد وقع فعلا، حتى كادت هذه الفرية المزعومة تصبح معنى متواترا فى جمهرة نقائضه مع الفرزدق.

كذلك يشير جرير إلى مقتل الزبير بن العوام الذى استجار بقوم الفرزدق فلم يجيروه حتى قتل، ويتدرج من هذه الواقعة إلى وصم مجاشع بوصمة العار وخيانة الجار وقلة الوفاء، ويقارن بينهم وبين عبد الله بن خازم القيسى الذى تولى لابن الزبير على خراسان فأعمل السيف فى تميم وقتل منهم خلقًا كثيرا، ثم يتطرق من كل هذا إلى حادث مقتل قتيبة بن مسلم فينسب الفضل فيه ليربوع عشيرة جرير ورهطه الأقربين، راميًا الفرزدق وقومه بالخور والتبعية، ومعتذرا لقيس عن قتل ابن مسلم.

ولئن كانت هذه العناصر وأمثالها واضحة الدلالة على الجانب القبلى فى النقائض، فإن بعضها لا يخلو من دلالة تاريخية تجعل هذه النقائض بمثابة الوثائق الفنية لخريطة القبائل العربية ومواقعها وعلاقاتها وأيامها فى الجاهلية والإسلام، وهو ما سنعرض له فى عجالة تحليلية موجزة.

الدلالة التاريخية فى النقائض:

يقصد بالدلالة التاريخية فى هذا المقام ما تشف عنه النقائض من إشارات إلى ماضى القبائل العربية ممثلا فى أيامها ووقائعها وعلاقاتها المتبادلة، وكذلك ما تحمله من إيماءات إلى حاضر هذه القبائل ومواقفها السياسية، فهذه الدلالة إذا تعلقت بالماضى فهى تاريخية، وإذا تعلقت بحاضر هذه القبائل وواقعها فى العصر الأموى فهى سياسية، ومن ثم فالدلالة المشار إليها دلالة وثائقية من ناحية، وسياسية من ناحية أخرى.

وحديثنا عن تاريخية هذه الدلالة لا يعنى أن نعتمد عليها اعتمادا علميا مطلقًا فى هذه الناحية، لأن التاريخ فى يد الفنان مادة غفل يعالجها حسب منظوره الخاص، وأن يشكل الفنان هذه المادة طبقًا لرؤياه أمر لا يحتاج إلى برهان، وفى هذا الشأن لا يكاد يختلف الفنان الذى يشكل التاريخ عن صنوه الذى يشكل الواقع، كلاهما يتناول مادته فى إطار فنى خلاق، وكلاهما يعيد صياغة هذه المادة بما يتواءم مع رؤيته الإبداعية، وإن اختلفا بعد ذلك فى طريقة هذا التشكيل ونوعية المادة التى يشكلانها[١].

من ثم فإن طرحنا لهذه الدلالة التاريخية فى النقائض ليس اقتراحا بأن نستنبط منها تاريخ العصر الأموى أو ما سبقه من عصور، لسبب بسيط، وهو أن جريرا أو الفرزدق لم يكن فيما ينظمه كاتب تاريخ، أو مدونًا لأيام، أو موثقًا لوقائع وأحداث، وإنما كان كل منهم شاعرًا قبل كل شىء، شاعرًا يحس بالواقعة من وجهة نظره وبما يخدم غرضه، ويتناول هذه الواقعة طبقا لهذا الإحساس ووفقًا لذلك الغرض. وصحيح أن الفنان الحق لا يزوّر التاريخ ولا يلفق الوقائع، ولكنه أيضًا لا يقف أمام الحدث موقف الرياضى من معادلاته وأرقامه، إنما تبرز ذاتيته وأصالته فى تلقى هذا الحدث وتصويره والتعليق عليه، وقد سبق أن رأينا كيف تلقف جرير شائعة من الشائعات عن «جعثن» أخت الفرزدق، فبالغ فيها وأضاف إليها وساقها كما لو كانت إحدى الحقائق المسلمة، كما سبق أن رأينا كيف وقف كل من الشاعرين إزاء حادثة واحدة – مقتل قتيبة بن مسلم – موقفًا مختلفًا، فهى محسوبة لتميم، ومحسوبة على قيس من وجهة نظر الفرزدق، على حين أنها فى يقين جرير فخر ليربوع إذا كان فيها ما يستحق الفخر، وهى عار على مجاشع لخورها وضعفها، ثم هى موطن اعتذار لقيس ومدعاة للأسف على تحريك سلسلة الثارات من جديد.

وإذا لم يكن الهدف من تعقب هذه الدلالة هو الاعتماد عليها فى التوثيق التاريخى لعلاقات القبائل العربية، فإننا نتوقف لديها هنا باعتبارين، الأول أنها تشف عن تلك الحاسة التاريخية التى كان يتزود بها شاعر النقائض، والتى كانت تصله بتراثه، وتصل حاضر قبيلته بماضيها، وتجعل مواقفها فى العصر الأموى حلقة من حلقات ذلك الوجود القبلى الذى يمتد بجذوره إلى العصر الجاهلى.

أما الاعتبار الثانى فهو أن تلك الدلالة التاريخية التى اقتضت من مبدعى النقائض ذلك الجهد الثقافى الجامع، وذلك الكيان الذهنى المركب، تقتضى من المتلقى بدوره جهدًا مماثلا، حتى

---

(١) عن المعالجة الأدبية للتاريخ يراجع:
Literary Criticism, Collected Essays, Leningrad, 1971, pp 40-45.

يدرك كل إيماءاتها، وحتى يقف على جوهر وقائعها وأحداثها، وحتى يستوعب مجمل العمل الشعرى بكل أبعاده ومراميه، ومن هنا نزعم أن المستوى التاريخى فى إبداع النقائض لابد وأن يواكبه مستوى مماثل فى تلقيها وتذوقها وتحليلها.

ولن نتلبث طويلا عند التماس النماذج التى تؤكد هذا المعنى التاريخى فى النقائض الأموية، فهذه النماذج من الوفرة والوضوح لدى دارسى هذا العصر بحيث لا تحتاج إلى الإفاضة والتفصيل، ونقنع بالتوقف عند نقيضتين اثنتين لفارسى الساحة الفنية آنذاك، أما البادئة منهما فلجرير، استهلها - كعادته فى معظم نقائضه - بمقدمة غزلية استغرقت ستة عشر بيتًا، ثم تصدى لخصمه فيما يربو على عشرين بيتًا، يغلب عليها الذم بمثالب شخصية، وتتراوح مستويات الهجاء فيها بين طعن الفرزدق فى عرضه وأعراض نساء قومه، وتعييره بالقيون وآلات الحدادة ومظاهرها، كالكير والنفخ والجنبة - يقصد ما يشبه الجراب - التى يحتفظ فيها بأدوات مهنته المزعومة.

بعد ذلك وعلى مدى أكثر من ثلاثين بيتًا، نرى الشاعر يطرح رؤيته التاريخية والسياسية للعلاقة بين قيس وتميم، وبين يربوع ومجاشع، راجعا بهذه الرؤية إلى أحداث الماضى تارة، متوقفًا بها عند وقائع الحاضر تارة أخرى؛ فهو يعيب على الفرزدق لجوءه إلى الحجاج ومدحه إياه، رغم أن الفرزدق تميمى والحجاج قيسى:

رأيتُك إذ لم يُغْنك الله بالغنى لجأتَ إلى قيس وخذّك ضارع[1]

وهو يستغل غضب صعصعة - جد الفرزدق - على أحد غلمانه وشفاعة مولاته له لدى سيده، فيضخم هذه الحادثة، موهما أن هذه الشفاعة لم تكن إلا لأن ثمة علاقة كانت بين هذا الغلام وسيدته:

يقول لَيلَى قينُ صعصعة اشفعى وفيما وراء الكِير للقَيْن شافع

وهو يشير فى بيت واحد إلى واقعتين من وقائع الماضى: مقتل أبى مندوسة مرة بن سفيان بن مجاشع بيد بنى يربوع فى يوم الكلاب الأول، ومصرع الصمة بن الحارث الجشمى وهو فى جوار الحارث بن بيبة من بنى مجاشع، مع ما فى مقتل الجار من عار لدى العرب:

---

(١) الضارع: الخاضع الذليل وقد اعتمدنا فى توثيق نص النقيضتين وإيضاح ما فيهما من دلالات تاريخية على كتاب النقائض - طبعة ليدن سنة ١٩٠٨.

نَدَسْنا أبا مَنْدُوسة القين بالقنا ومَارَ دم من جار بَيْبَةَ ناقع[١]

كذلك يشير إلى مسيرة قابوس وحسان ابنى المنذر، وإغارتهما على بنى يربوع، وانتصار هؤلاء عليهما وعلى من كان معهما من الأعوان والأحلاف، رغم أن حاجبا بن زرارة التميمى كان يتنبأ بالنصر للمغيرين. يلمح الشاعر إلى هذا اليوم، كما يومىء بالزراية إلى بعض وجوه بنى تميم: عمرو بن عمرو، والأقرع وفراس ابنى حابس بن عقال أولاد عمومة الفرزدق:

ونحن نَفَرنا حاجبا مجد قومه وما نال عمروٌ مجَدنا والأقارع
ونحن صَدعْنا هامة ابن مُحرِّق فما رقأتْ تلك العيون الدّوامع[٢]

ثم يعود إلى أحد المحاور القبلية والسياسية فى نقائضه، حين يذكر عار مجاشع فى عدم الوفاء بجوار الزبير بن العوام، حوارى الرسول ﷺ وأحد أصحابه الأدنين:

يُقبّح جبريل وجوه مُجاشع وتَنْعى الحَوارىَّ النجومُ الطوالع
إذا قيل أىُّ الناس شرُّ قبيلة وأعظم عارا قيل تلك مجاشع

ويستفيض فى هذه الواقعة حتى يتطرق منها إلى تعيير خصمه بيوم السباقين - والسباق واد بالدهناء - حين أقدم عوف بن القعقاع بن زرارة على قتل بعض رهائنه، جالبًا على نفسه وقومه من تميم خزى الخيانة ونكث العهد:

ندمتَ على يوم السِّبَاقين بعدما وهيْتَ فلم يوجد لوَهْيِكَ راقع
فما أنتُم بالقوم يوم افتديتُم به عَنْوةً والسَّمْهرىّ شوارع

وإذا كان هذا هو شأن الدلالة التاريخية فى نقائض جرير، فإن نقائض الفرزدق لم تكن تقل عنها فى هذا المقام، بل على العكس من ذلك، نرى اتكاء الفرزدق على هذا الجانب أوفر، وتركيزه عليه أشد، وتفوقه فيه أوضح، فجرير لم يكن له ماللفرزدق وقومه من مآثر وعتها ذاكرة التاريخ العربى فى الجاهلية والإسلام، ومن ثم لجأ إلى تصيد العوارت الشخصية يضخمها ويكبرها، حتى يجعل من الهفوة قصة، ومن الشائعة سيرة ذائعة، هذا على حين لم تكن بصاحبه حاجة إلى تلقف الهفوات، أو اصطناع الأقاصيص ونسج حواشيها وذيولها، فأمامه تاريخ قومه يمتاح منه كيف شاء وبالقدر الذى يريد، وأمامه وثائق الماضى ووقائع الحاضر يستمد منها نهرا من الثقة لا تقنّعه براقع الزخرف أو التزيد، وفيضا من التعالى الممزوج بالزراية على خصمه وعلى عشيرته من بنى يربوع.

(١) ندسنا: طعنا، مار الدم: هاج واضطرب، الناقع: الشافى المروى.
(٢) نفرنا: غلبنا، ابن محرق: قابوس بن المنذر، رقأ الدمع: انقطع.

بهذا المزيج من الاعتداد بالنفس والاستهانة بالخصم ينقض الفرزدق ما بدأه جرير، ينقضه بقصيدة تحتذى ما احتذته القصيدة الأولى من وزن وروى: بحر الطويل بامتداده واتساع نغماته، وقافية العين بامتلائها وصوتها الجهير:

ومنّا الذى أعطى الرسولُ عطيّة ... أُسارى تميم والعيون دوامع[١]
ومنا خطيب لا يعاب وحامل ... أغرّ إذا التفّت عليه المجامع[٢]
ومنا الذى أحيا الوَئيد وغالب ... وعمْرو ومنّا حاجب والأقارع[٣]
ومنا غداة الروع فِتْيان غارة ... إذا متَعتْ تحت الزِّجاج الأشاجع[٤]
ومنا الذى قاد الجياد على الوجا ... لنجران حتى صبَّحتْها النزائع[٥]
أولئـك آبائى فجئنى بمثلهم ... إذا جمعتْنا يا جرير المَجامع
أتَعْدل أحسابا لئاما أدِقَّةً ... بأحسابنا، إنِّى إلى الله راجع
وكنا إذا الجبار صَعّر خده ... ضربناه حتى تستقيم الأخادع[٦]
ونحن جعلنا لابن طَيْبَة حكمه ... من الرمح إذ نقع السنابك ساطع[٧]
وكل فطيم ينتهى لفِطامه ... وكل كُلَيْبِىٍّ وإن شاب راضع
إذا قيل أىُّ الناس شرٌّ قبيلةً ... أشارت كليب بالأكفّ الأصابع
ولم تَمْنعوا يوم الهُذَيْل بناتكم ... بنى الكلب، والحامى الحقيقةِ مانع
غداةَ أتتْ خيل الهُذيل وراءكم ... وسُدّت عليكم مِنْ إرابَ المَطالع

فبدلا من السباب اللاذع، والصورة التهكمية الساخرة التى يرسمها جرير للفرزدق وهو جالس أمام كير الحدادة يعالج أدوات صناعته، نرى هنا الزهو الشديد مقرونا بالزراية على الخصم وتصغير شأنه، ونرى جلال الصدق فى تصوير أمجاد الآباء والأجداد، ونرى مقارنة دائبة بين مجاشع وكليب، بين المتبوع والتابع، بين أحساب عريقة وأحساب دقيقة رقيقة، ومن ثم كان هجاء جرير - بوجه عام - أكثر سخرية، وأشد إقذاعًا، وأبعث لإغاظة صاحبه بتهكمه

(١) يشير بهذا البيت إلى الأقرع بن حابس، أحد سادة تميم.
(٢) الخطيب: عطارد بن حاجب بن زرارة، والحامل: يعنى حامل الديات، والأغر من الرجال: المعروف.
(٣) الذى أحيا الموءودة جده صعصعة، وغالب أبوه.
(٤) متعت: ارتفعت، الزجاج: السيوف، الأشاجع: أعصاب الكف.
(٥) الوجى: الحفا، النزائع من الخيل: المتخيرات منها.
(٦) صعر خده: أماله تكبرا، والأخدعان: عرقان فى صفحتى العنق.
(٧) النقع: الغبار، السنابك: أطراف حوافر الخيل.

ومبالغاته، على حين كان هجاء الفرزدق أقرب إلى تحرى الصدق والقصد، وأكثر إيلامًا، لأنه إذا صور فخرًا فهو فخر بأمجاد حقيقية، وإذا حمل على خصمه حمل عليه بما فيه أو فى قومه، وحتى حين يبالغ فإن مبالغاته تكون - فى مجمل الأحيان - فى حدود المقبول.

ثم إن هذا النموذج الذى اقتطفناه من نقيضة الفرزدق يدل أوضح دلالة على ذلك الطابع التاريخى الغالب على نقائض الشاعر، وهو طابع يمتزج بالطابع القبلى ويغذيه، وكل منهما لا ينفصل فى التحليل النهائى عن صاحبه، لأن الإحساس بالتاريخ لدى الشاعر القبلى جزء من إحساسه بعشيرته وقومه.

وهكذا نرى شاعرنا فى البيت الأول من ذلك النموذج يشير إلى إطلاق الرسول ﷺ سبى بنى تميم حين حدثه بشأنهم الأقرع بن حابس أحد أبناء عمومة الفرزدق، وفى البيت الثانى يشير إلى شخصيتين تاريخيتين مرموقتين فى بنى مجاشع، هما: عطارد بن حاجب بن زرارة خطيب تميم وإمام وفدها إلى الرسول، وعبد الله بن حكيم حامل الديات يوم المربد.

أما البيت الثالث فقصد به جده صعصعة وما عرف به فى الجاهلية من نخوة وسخاء وحرص خاص على إحياء الموءودة وافتدائها من ذويها، وقد روى عنه قوله: اللهم إن لك ألا أسمع برجل من العرب يريد أن يئد ابنته إلا اشتريتها منه»، ويقال إن عدد من افتداهن من بنات العرب كان يقدر بالمئات!!.

ويعود فى البيت الخامس إلى الأقرع بن حابس الذى قاد جياد الخيل حتى أغار على نجران، ولا ينسى فى البيت التاسع أن يذكر ابن طيبة، الملك الغسانى الذى أغار يوم الترويح على بنى نهشل فهزموه وقتلوه، ثم يتطرق من هذا إلى واقعة تاريخية مشهورة تمس بنى يربوع مساسًا مباشرًا، فيذكر فى البيتين الأخيرين ما كان من شأن الهذيل التغلبى حين غزا بنى يربوع بمكان يقال له «إراب»، فقتل فيهم قتلا ذريعًا، واقتنص إبلهم وأموالهم، وسبى الحرائر من نسائهم، وفعل بهم مالا يزال الفرزدق يتندر به ويعير خصمه.

ولو ذهبنا نتعقب بالتحليل التاريخى كل أبيات هذه النقيضة لما اتسع المقام، لأن كل بيت مفرد - بل وكل شطرة مفردة - يبتعث إلى الذاكرة أمر علم من أعلام تميم أو مأثرة من مآثرها، أو يوما من الأيام التى دارت فيها الدائرة على بنى يربوع، ومن ثم تئول النقيضة إلى خريطة تاريخية تنتثر على اتساعها الرحب إيماءات وتلميحات لا تنضب ولا ينقطع مددها.

ومن الموازنة السريعة بين نقائض جرير والفرزدق يتبين لنا أن غرام الأول بالغزل وبراعته فيه لم يكونا يفارقانه حتى فى مطالع نقائضه، وقد مر بنا كيف استهل نقيضته الآنفة الذكر بمقدمة غزلية استغرقت أكثر من خمسة عشر بيتًا، أما الفرزدق فقد كان يميل إلى افتتاح نقائضه بالفخر

أو الهجاء مباشرة، ولأنه يكون البادىء فى غالب الأحيان، فإن نقائضه تأتى طويلة بعض الشىء، وفيها تبدو جزالة الأسلوب وفخامة التعبير وشدة أسره، على حين تبدو فى أهاجى خصمه تلك السخرية المريرة، وتلك المقدرة الفذة على ادعاء الشىء وطرحه وكأنه إحدى الحقائق المسلمة، ثم جعل هذا الادعاء مقدمة للتندر بخصمه وتلوين صورته أمام الجمهور بشتى أصباغ التهكم والمفارقة.

ولم تكن نقائض جرير والفرزدق هى النمط الوحيد فى كل ما قدمناه عن الدلالتين القبلية والتاريخية، فبجوارها ومعها كانت نقائض جرير والأخطل، وكما لعبت النزعات السياسية والقبلية دورها فى تأريث الخصومة الأدبية فى الحالة الأولى، نراها تلعب دورًا مشابهًا فى الحالة الثانية، ومثلما التمس مؤرخو الأدب الأقدمون سببًا مباشرًا لنقائض جرير والفرزدق فيما حكوه من دخول الفرزدق بين جرير والبعيث، فإنهم هنا أيضًا يلتمسون ما يشبه ذلك السبب فيما يروى من أن الأخطل تدخل لصالح الفرزدق فى خصومته مع جرير، ومن ثم تعرض لغضب الأخير ولسانه اللاذع، ولقد يكون هذا المثير المباشر صحيحًا من الوجهة التاريخية، خاصة أن أكثر من راو يذكره مع اختلاف فى التفاصيل[١]، ولكن يبقى أن عوامل العصبية وما التبس بها من مؤثرات السياسة، ظلت هى المحرك الدائم وراء هذه النقائض التى استطار شررها بين جرير والأخطل، مثلما استطار من قبل بين جرير والفرزدق.

ومن المعروف أن جريرًا قد انحاز إلى جانب قيس التى كانت تناصر ابن الزبير، على حين وقفت تغلب - قبيلة الأخطل - مع الأمويين، فكانت بذلك فى تناقض مستمر مع قيس ومن يتحدث باسمها من الشعراء وفى مقدمتهم جرير، وزاد هذا التناقض تعقيدًا واتساعًا أن «تغلب» كانت تنزل بالموصل وتمتد بطونها وعشائرها من الحيرة والفرات إلى شواطىء الشام، فلما جاء الإسلام وخرجت فصائل قيس للجهاد والفتح نزل بعضها بالشام، فوجدوا أنفسهم وجهًا لوجه أمام تغلب، مع ما عسى أن يترتب على هذا الجوار المفروض من منافسة وتزاحم كانا يرقيان فى بعض الأحيان إلى درجة الصدام المسلح بين القبيلتين.

هكذا اجتمعت نزعات العرق والسياسة على وضع جرير فى مواجهة الأخطل، أولهما يتحدث باسم قيس وإن لم يكن منها، والآخر ينافح عن قبيلته ضد قيس ومن يتحدث باسمها، وحتى فى مقام المديح الذى يقتضى تفرغ الشاعر لممدوحه، نرى الأخطل لا يفلت هذه الفرصة دون أن يقبح صورة خصومه فى نظر عبد الملك بن مروان، مرتديا فى حملته عليهم ثوب الناصح الأمين:

---

(١) يذكره ابن سلام برواية المسمعى مرة، ثم يذكره مع اختلاف التفاصيل برواية أبى يحيى الضبى: طبقات الشعراء - ص١٥٨، ١٦٢.

بني أمية إني ناصح لكُم ... فلا يبيتنّ فيكم آمنا زُفَرُ[١]
وأتْخِذوه عدوًا إنّ شاهده ... وما تَغَيّب من أخلاقه دَعَرُ[٢]
إنّ الضغينة تَلْقاها وإن قدمت ... كالعَرّيكمُن حينا ثم ينتشر[٣]
وقد نُصِرتَ أميرَ المؤمنين بنا ... لمّا أتاك ببطن الغُوطة الخبر
يُعرّفونك رأس ابن الحُبَاب وقد ... أضحى وللسيف فى خَيْشومه أثر[٤]
فلا هدى الله قيسا مِن ضلالتهم ... ولا لَعًا لبنى ذكوان إذ عَثَروا[٥]
ضَجّوا من الحرب إذ عَضّت غَواربهم ... وقيس عَيْلان من أخلاقها الضّجر

ويتلقف جرير رسالة صاحبه، متصديا بالنقض لإيقاعاتها وصورها وأفكارها:

إنّى رأيتكم والحق مَغْضَبة ... تَخْزَون أن يُذْكر الجحاف أو زُفَرُ
قومًا يردون سَرْح القوم عادية ... شُعْثَ النّواصِى إذا ما يُطْرَد العَكَرُ[٦]
قادوا إليكم صدور الخيل مُعْلَمَةً ... تَغْشى الطعان وفى أعطافها زور[٧]
كانت وقائعِ قلنا لن تُرى أبدا ... من تَغْلب بعدها عيْن ولا أثر
حتى سمعتُ بخنزير ضَغَا جَزَعا ... منهم، فقلت أرى الأموات قد نشِروا[٨]
أحياؤهم شرُّ أحياء وألأمُه ... والأرض تَلْفظ موتاهم إذا قُبروا
فما مَنعتم غداة البِشْر نسوتكم ... ولا صبرتم لقيس مثلما صبروا[٩]

فنلحظ هنا مالحظناه فى نقائض جرير والفرزدق من وحدة الموسيقى الشعرية فى النقيضتين، كما نرى أن الشاعر الناقض كان - فى الغالب - يلجأ إلى المعانى التى أوردها صاحبه فينفيها عنه، ويثبت عكسها له، فنصح الأخطل لبنى أمية بعدم الأمان إلى زفر بن الحارث تقابله عند

---

(١) زفر بن الحارث الكلابى، ممن شهدوا موقعة مرج راهط فى صفوف الزبيريين.
(٢) الدعر: الفساد.
(٣) العر: الجرب.
(٤) ابن الحباب: عمير بن الحباب السلمى، الخيشوم: قصبة الأنف.
(٥) لالعا: دعاء عليهم بأن لايقالوا من عثرتهم، وبنو ذكوان رهط عمير بن الحباب، انظر شعر الأخطل - جـ ٢ - ص ١١٥ - ١١٧.
(٦) السرح: المواشى السارحة، العكر: الإبل الكثيرة.
(٧) معلمة: موسومة معروفة، الزور: الميل.
(٨) ضغا: صاح، نشروا: بعثوا.
(٩) البشر: يوم بين قيس وتغلب، أوقعت فيه الأولى بالثانية - ديوان جرير - ص١٩٩

جرير إشارة صريحة إلى أن تغلب تشعر بالصغار والخزى حينما يذكر الجحاف أو زفر أو غيرهما من فرسان قيس وأحلافها فى موقعة «مرج راهط»، وتنديد الأخطل بقيس تقابله عند جرير إشادة بمفاخرها وتنويه بشجاعتها وصبرها عند القتال، وإيماء الأخطل إلى موقعة «مرج راهط» التى هزمت فيها قيس، تنقضه إشارة جرير إلى يوم «البشر» بين قيس وتغلب، وهو يوم أوقعت فيه الأولى بالثانية، وقتلت منها كثيرين، ولم تتحرج من التمثيل بهم بعد قتلهم.

وإذا كان جرير قد استخدم السخرية وسيلة فنية يتلقف بها سوءات الفرزدق فينميها، ويضيف اليها بالمبالغة حواشى وذيولا، فإنه لم يتورع عن استخدام نفس الوسيلة فى هجاء الأخطل مع فارق بسيط، وهو أن السخرية هنا كانت تتوجه فى كثير من الحالات إلى عقيدة الأخطل وظروف تكوينه الروحى وما يقترن بها من النواقيس والصلبان وأكل الخنزير وما إلى ذلك،يعرضها جرير عرضا تهكميا فى كل الأحيان، لاذعًا مؤلما فى بعض الأحيان، بل إن روح العبث وتصيد المفارقة لم تكن تتخلى عنه حتى وهو يقتبس من خصمه شطرات أو أبيات تنتثر فى أطراف القصيدة هنا أو هناك، يغير فيها عنوان من قيلت فيه ولايزيد، فإذا رمى الأخطل بنى يربوع بأنهم أذلاء لايستشارون فى ملمات الأمور، وبأنهم «يتساءلون بظهر الغيب ما الخبر»، أو إذا صور بأس تغلب على أنه «إحدى الدواهى التى تخشى وتنتظر» أخذ جرير كلا من المعنيين بألفاظه، فخلع الأول على تغلب، وأسبغ الثانى على يربوع، وكأن النقض على لسانه لم يعد مقصورًا على نفى ما قيل، بل تجاوزه إلى إثبات هذا الذى قيل مع تغيير عنوان من قيل فيه، وتلك أبلغ آيات التحايل الفنى.

وبالمثل لم يكن الأخطل بعيدًا عن هذه النزعة الساخرة المتهكمة، ولم يكن يتورع عن مواجهة صاحبه بنفس السلاح كلما سنحت له الفرصة، ولم يخفف من حجم الألم الناتج فى كلتا الحالتين سوى إحساس الشعراء بأنهم إزاء نمط من المبارزات الكلامية لا يترك جرحا ولا يثير غبارا، نمط لا يتوغل فى حدته ومرارته إلى عمق ذلك الصراع الدموى الملتهب الذى كانت تخوضه قبائل الجاهلية وألسنتها من الشعراء.

نظرة مقارنة :

ويقودنا الحديث عن اتجاه كل من الشعراء الثلاثة فى نقائضه إلى مقارنة أثيرة لدى دارسى الأدب الأموى والمؤرخين له، يعقدونها كلما سنحت الفرصة لمعالجة هذا الأدب وتياراته، وكلما سمح المقام بالمفاضلة بين هؤلاء الشعراء أو بعضهم، وهى مقارنة لا يولع بها المحدثون فحسب، بل إن لها جذورًا فى موسوعات الأدب القديم ومصادره، مثل «طبقات الشعراء» لابن سلام، ومثل «الشعر والشعراء» «لابن قتيبة، وغيرهما من جوامع التراث العربى .

وما نلحظه أن هذه المقارنة فى إطارها القديم كانت تتم تارة دون طرح مقدمات كافية لتفضيل واحد من هؤلاء الثلاثة على صاحبيه، كذلك الذى يرويه ابن سلام من أن «الأخطل إذا لم يجىء سابقًا فهو سُكَيت، والفرزدق لايجىء سابقًا ولاسكيتا، فهو بمنزلة المصلى، وجرير يجىء سابقا وسكيتا ومصليا[١]» ووجه الشبه فى هذه العبارة واضح، لأنها تجعل من الشعراء الثلاثة أفراس رهان، منها ما يجىء سابقا، ومنها مايجىء مصليا أى تاليا، ومنها ما يجىء آخرًا فهو سكيت.

ولكن هذه العبارة – على وضوحها – قد أجملت الحكم وساقته دون تحليل أو برهان، فلم يقل لنا ابن سلام ولا من روى عنه ابن سلام : كيف وفى أى فنون الشعر يجىء الأخطل سابقًا أو مسبوقًا، ولماذا قدر على الفرزدق أن يجىء تاليًا فى كل الأحوال لا يتقدم به فنه ولا يتأخر، ثم فى أى ميادين الساحة الشعرية يتفوق جرير، وفى أيها يتوسط، وفى أيها يأتى آخرا كما يأتى الجواد الخاسر؟!

وتارة أخرى كانت هذه المقارنة تتم على أسس ليست وثيقة الصلة بطبيعة البناء الفنى، مثل تفضيل جرير على صاحبيه لأسباب منها تدينه وورعه ودماثة طبعه، أو تساق فيها الاسس الفنية بطريقة إنشائية ينقصها التنظير والتفصيل والتحليل، كالقول بأن شعر الفرزدق أكثر فخامة وجزالة، ومن ثم يفضله المتخصصون ورواة اللغة، وأن شعر جرير أكثر رقة وسهولة وتدفقا، ومن ثم يكثر تردده بين أوساط الناس.

وأحيانًا كان القدماء يفطنون إلى تلك الحقيقة البدهية، وهى أن أيا من هؤلاء الشعراء يصعب تفضيله على صاحبيه تفضيلا مطلقًا، لسبب بسيط، وهو أن موهبة كل منهم قد تكون أكثر توهجا وأغزر عطاء فى بعض مناحى القول، على حين تكون أقل سخاء فى نواحٍ أخرى، «فليس كل بان بضرب – أى من ضروب الشعر – بصيرا بغيره[٢]»، على حد تعبير ابن قتيبة.

ولعل الشاعر العباسى بشار بن برد لم يكن بمنأى عن إدراك هذه الحقيقة حين سئل عن الشعراء الثلاثة، فقضى بتأخر الأخطل عن صاحبيه، مفسرا ذيوع شعره بتعصب بنى ربيعة له، ثم مفضلا جريرا على الفرزدق، لأنه «يحسن ضروبًا من الشعر لا يحسنها الفرزدق[٣]»، وإذا كان بشار لم يتناول بالتحديد نوع هذه الضروب التى يحسنها جرير، فإن معاصره الشاعر العباسى مروان بن أبى حفصة لا يغفل هذا التحديد، وإن كان يسوقه على طريقة الشعراء

---

(١) طبقات الشعراء – ص ١٢٩.

(٢) الشعر والشعراء – ص ٣٦.

(٣) طبقات الشعراء – ١٢٩.

فيجعل الفخر من نصيب الفرزدق، ويستأثر بالمديح والهجاء لجرير:

ذهب الفرزدق بالفخار، وإنما حلو الكلام ومره لجرير[١]

ولأن بشارا شاعر، ولأن مروان بن أبي حفصه شاعر، ولأن الشعراء بطبعهم ذوو أمزجة تجميعية فإن كلا منهما يقنع بهذا القضاء المجمل دون أن يوضح لنا طبيعة وخصائص تلك المجالات الفنية التي يحسنها من حكموا بإحسانه، وكيف كانت وسائله وطرقه إلى ذلك الإحسان.

والمقياس النقدى لدى القدماء فى هذه الناحية يكاد ينحصر فى مدى حرص كل من الشعراء الثلاثة على تقاليد الشعر الجاهلى وعرفه الفنى، فبقدر متابعة كل منهم لأصول الشعر القديم تكون إجادته ويكون توفيقه، ومن ثم يبدو أثر التقاليد حتى فى مجالات الموازنة الشعرية، وفى هذا الصدد يلحظ ابن قتيبة أن الفرزدق لا يدين بالولاء الفنى لشاعر قدر مايدين لزهير بن أبى سلمى، أما جرير فينسج على منوال الأعشى، على حين يميل الأخطل إلى النابغة الذبيانى. ويبدو أنه فى ملاحظته هذه كان يشير إلى ما فى مدائح زهير والفرزدق من قصد واعتدال فى رسم صورة الممدوح، وما فى مدائح جرير والأعشى من ضراعة ومبالغة وذوبان فى شخصية الممدوح، ثم ما فى مدائح النابغة والأخطل من تصوير جاهلى وتشبيهات حسية مركبة[٢].

وإذا كانت مناهج الأقدمين فى هذه المقارنة على ذلك النحو من المصادرة التى يعوزها البرهان، أو المفاضلة على أسس ترجع إلى شخصية الفرد القائل أكثر مما ترجع إلى طبيعة ما يقول، أوالتعميم السريع الذى قد يفتقر إلى دقة الحكم وتفصيل النظر وبسط الرؤية النقدية وتأصيلها، فإن بعض طرائق المحدثين لا تقدم لنا بدورها جديدا فى نتائج هذه المقارنة بين الشعراء الثلاثة، وإن كانت فى تسويغ هذه النتائج أكثر تفصيلا وأشد اعتمادا على تفسير مواطن الإجادة عند كل منهم بطبيعة الشاعر وتكوينه النفسى ومزاجه الخاص.

ومن أمثل التصورات فى هذا الشأن مايراه الدكتور شوقى ضيف من أن جريرا كان يسبق الفرزدق فى مدائحه، أما بالنسبة للأخطل فكانا كفرسى رهان، وربما زاد جرير عليه بعذوبة لفظه، وتلك الحالة الإسلامية الوضيئة التى كان يحيط بها صورة ممدوحه.

كذلك «يتقدم جرير الأخطل والفرزدق جميعا فى الموضوعات التى تتطلب دقة فى الحس ورقة فى الشعور، إذ كان الأخطل متكلفا يصطنع الوقار، وكان الفرزدق صاحب نفس خشنة صلبة،

---

(١) السابق - ص ١٣١.

(٢) انظر: الشعر والشعراء - ص ١٨٠، ١٨٦، ١٨٩.

ولذلك تفوق فى الفخر، وساعده أن وجد مادة غزيرة من مناقب عشيرته وآبائه هيأته ليرسل كلماته كأنها العواصف القاصفة والصواعق المدمرة. أما جرير فلم يكن لعشيرته ولا لآبائه شىء من المآثر الحميدة[١]»، ومن ثم انطوت جوانحه على فيض من المعاناة والألم والمكابدة، وهو شعور - أو قل هو مزاج نفسى - يلائم الرثاء الفاجع والغزل المحروم، وكلاهما مما برز فيه الشاعر وتفوق على خصومه.

ولعل إحساسه بضآلة أصله هو الذى دفعه إلى اصطناع السخرية والمفارقة والمبالغة فى أهاجيه، ومن ثم تدفقت على لسانه لاذعة مريرة حادة، تجعل من هين العيوب جبالا من العورات والمثالب، وتتعقب أدنى الهفوات، فإذا لم تجدها أقدمت على اختراعها إذا اقتضى الأمر. وهكذا لا يسلم لصاحبيه من مجالات التفوق سوى فخريات الفرزدق، وخمريات الأخطل وبعض مدائحه، ويبقى لجرير سبقه فيما عدا ذلك من فنون القول وضروبه، وخاصة حين يكون المقام مقام شجن أو ادِّكار، أو ضراعة واعتذار، أو ماهو بسبيل ذلك مما يقتضى رهافة فى المشاعر، وانبساطا فى الأحاسيس، وغزارة فى بث خوالج الوجدان والتعبير عنها.

على أنه إذا كنا قد سلمنا بمقياس الربط بين طبائع هؤلاء الشعراء ومجالات تفوقهم، فإن هذا المقياس ينبغى أن لا يستخدم على إطلاقه، بل يجب أن يكون مشروطا بالنظر التطبيقى فيما أبدعوه، وبتحليل أبنية هذا الإبداع ووسائله؛ إذ ليس ثمة فى مقام الدرس الأدبى ثوب يصلح لكل الحالات والأوضاع والأحجام، والاحتكام المطلق إلى أنماط السلوك ومظاهر الأفعال وحدها قد يؤدى إلى استخلاص نتائج خادعة أو مضللة، فليس من الضرورى أن يكون شعر الشاعر ترجمة حرفية لشخصيته الواقعية أو لأحداث حياته العملية، وقد يعيش فى شعره تجارب لم يعشها فى واقعه، دون أن يغض ذلك من أصالة تصوره وصدق تعبيره، وقد «كان الفرزدق - كما يقول ابن قتيبة - زير نساء وصاحب غزل، وكان مع ذلك لايجيد التشبيب، وكان جرير عِزْهاة عن النساء عفيفًا، وكان مع ذلك أحسن الناس تشبيبًا، وكان الفرزدق يقول : ما أحوجه مع عفته إلى صلابة شعرى، وأحوجنى إلى رقة شعره[٢]»، فهل ترى جريرا كان دعى الشعور أو زائف التصور لأنه جسد فى غزله مالم يعشه فى واقعه وما قد يتنافى مع ظاهر عفته؟ أم هل ترى الفرزدق كان قاصر الأداء لأنه لم يكن فى شعره على مستوى ما فى حياته من غزل؟ ليس الأمر كذلك فى الحالتين، لأن لكل منهما مثالا فنيا يدور حوله ويستلهمه، وليس بالضرورة أن ينطبق هذا المثال على واقع حياة الشاعر فى جزئياتها ونثرياتها، أو أن يكون ظلا شاحبًا لمظاهر طبعه وبدوات سلوكه بكل أبعادها وأحجامها.

---

(١) الدكتور شوقى ضيف : العصر الإسلامى - ص٢٨٦.

(٢) العزهاة : العفيف العزوف عن النساء: الشعر والشعراء - ص٢٧.